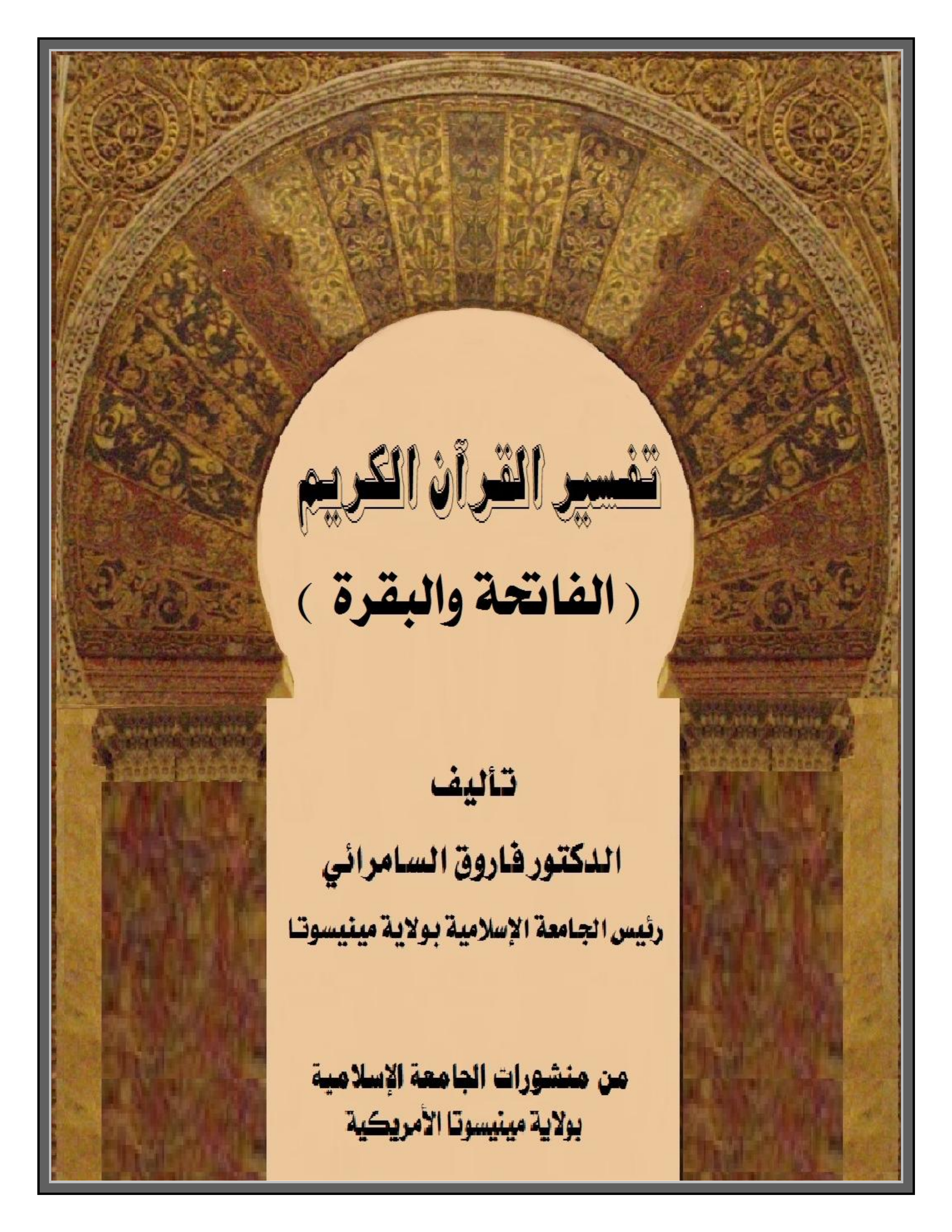


تفسير القرآن الكريم

(الفاتحة والبقرة)

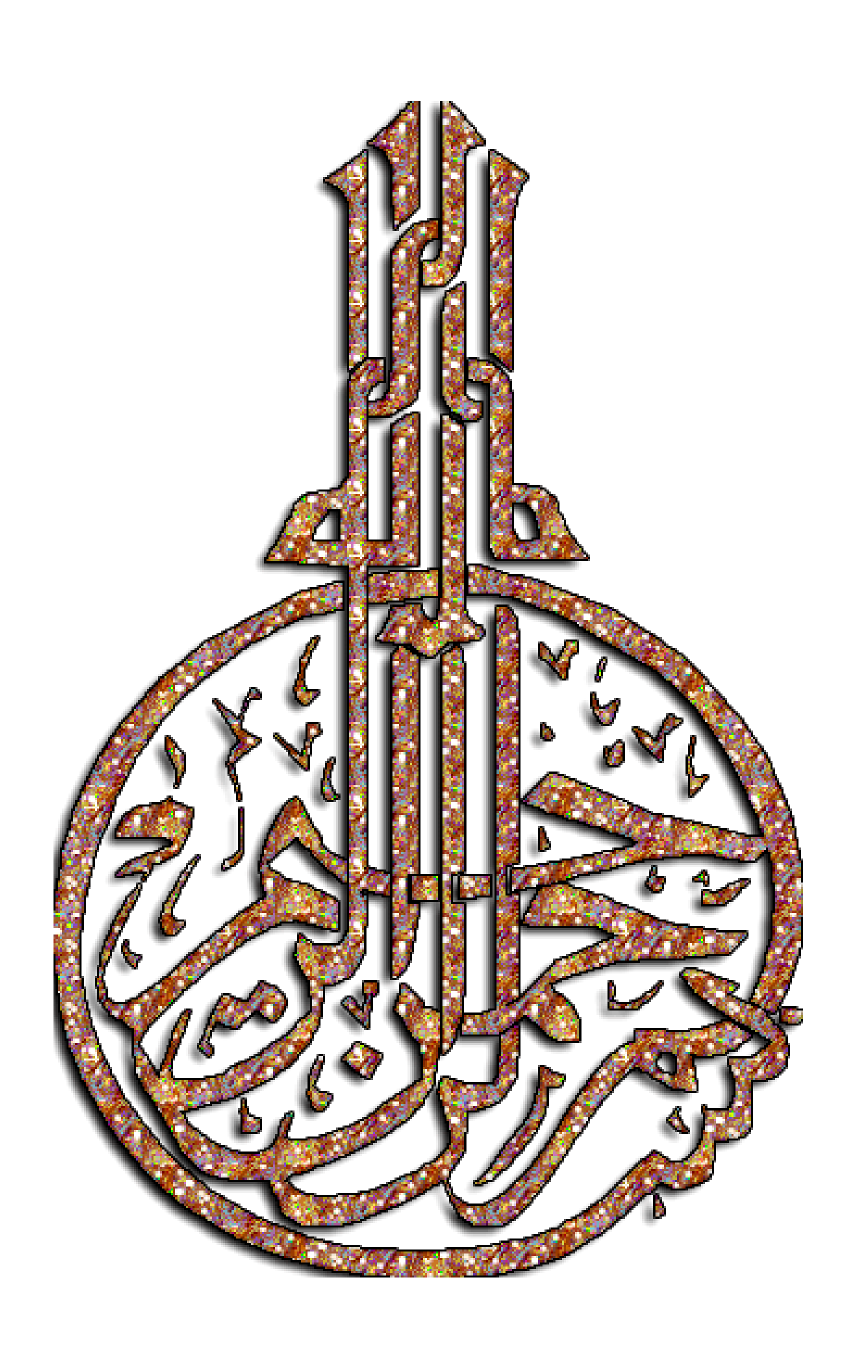
تأليف

الدكتور فاروق السامرائي

رئيس الجامعة الإسلامية بولاية مينيسوتا

من منشورات الجامعة الإسلامية

بولاية مينيسوتا الأمريكية


بسم الله الرحمن الرحيم

الجزء الأول

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

❋تفسير سورة الفاتحة ❋

سورة الفاتحة من السور العظيمة في القرآن الكريم، ولعلّ تكرار قراءتها في كلّ صلاة، بل وفي كلّ ركعة منها، سواء كانت فريضة أم نافلة، خير دليل على عِظَمِ مكانتها، وعلوّ شأنها، إضافة إلى أنّها شملت أسس العقيدة والعبادة، ومعالم الولاء والبراء.

ولسورة الفاتحة أسماء كثيرة، وكثرتها تدل على شرفها، وسموّ مكانتها بين سور القرآن العظيم، لكنّها سميت بـ (فاتحة الكتاب) من غير خلاف بين العلماء، وقد اشتهرت بهذا الاسم. أمّا عن مكان نزولها، فالراجح أنّها نزلت في مكة المكرمة، وذلك لسببين:

الأول: لأنّ الصلاة فُرضت فيها ليلة الإسراء والمعراج. وحيث إنّ الصلاة لا تصحّ إلاّ بقراءة الفاتحة لقول النبي ﷺ: (لا صلاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ

الثاني: لأنّ الإشارة إليها وردت في سورة الحجر ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ (آية 87) وسورة الحجر من السور المكيّة بلا خلاف بين العلماء.

وقيل إنـها نزلت في المدينة المنورة. وهناك من وفّق بين القولين فذهب إلى أنّ سورة الفاتحة نزلت مرتين، مرّة في مكة المكرمة، ومرّة في المدينة المنورة.

من أظهر الآثار الواردة في فضل سورة الفاتحة:

أولا: قول رسول الله ﷺ: (قَالَ اللَّهُ تَعَالَى قَسَمْتُ الصَّلاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى حَمِدَنِي عَبْدِي وَإِذَا قَالَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي وَإِذَا قَالَ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ قَالَ مَجَّدَنِي عَبْدِي وَقَالَ مَرَّةً فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي فَإِذَا قَالَ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ قَالَ هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ فَإِذَا قَالَ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ قَالَ هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ)[1]

---

[1] صحيح مسلم ، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كلّ ركعة (395)؛ وسنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن (2953)

ثانيا: عن أبي سعيد بن المعلي[1] ﷺ قال: (كُنْتُ أُصَلِّي فِي الْمَسْجِدِ فَدَعَانِي رَسُولُ الله ﷺ فَلَمْ أُجِبْهُ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي كُنْتُ أُصَلِّي فَقَالَ أَلَمْ يَقُلْ اللَّهُ ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ (الأنفال 24) ثُمَّ قَالَ لِي لأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ السُّوَرِ فِي الْقُرْآنِ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ الْمَسْجِدِ ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ قُلْتُ لَهُ أَلَمْ تَقُلْ لأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ قَالَ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ)[2]

ثالثا: وعن عبد الله بن عباس ﷺ قال: (بَيْنَمَا جِبْرِيلُ قَاعِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ سَمِعَ نَقِيضًا مِنْ فَوْقِهِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ فقَالَ هَذَا بَابٌ مِنْ السَّمَاءِ فُتِحَ الْيَوْمَ لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلا الْيَوْمَ فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ فَقَالَ هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الأَرْضِ لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلا الْيَوْمَ فَسَلَّمَ وَقَالَ أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ فَاتِحَةُ الْكِتَابِ وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلاّ أُعْطِيتَهُ)[3].

---

١ اسمه رافع بن أوس بن المعلي، الأنصاري البدري. وهو أول من صلى إلى القبلة حين حولت. توفي سنة أربع وسبعين وهو ابن أربع وستين. (أنظر ترجمته في: تهذيب الكمال، للمزي، ج3/ص 348؛ وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني، ج118/12)

٢ صحيح البخاري، كتاب: تفسير القرآن, باب: وسميت أمّ الكتاب, رقم الحديث (4474)

٣ صحيح مسلم, كتاب: صلاة المسافرين وقصرها ، باب: فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة، رقم الحديث (806).

(التفســير)

﴿أعوذ بالله من الشيطان الرجيم﴾

الاستعاذة هي أول التقاء للعبد المؤمن مع كتاب الله، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (النحل 98) أي إذا شرعت بقراءة القرآن الكريم فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم.

معنى الاستعاذة: هي طلب الالتجاء إلى الله عزّ وجل، والاستعانة به، للتخلص من غواية الشيطان الرجيم المبعد عن رحمة الله، فإنّه لا يقدر عليه إلاّ خالقه، فالذي طرده من رحمته هو القادر على طرده من حياة عباده رحمة بهم، ولطفا بأحوالهم.

ومعنى الرجيم: أي المرجوم والمبعد عن رحمة الله وعن الخير الذي أنعم الله به على عباده المؤمنين، فقد طرده اللهُ إبليسَ من رحمته بسبب تكبّره وامتناعه عن السجود لأمره، ليبقى حبيس اللعنة الإلهيّة إلى يوم الدين. قال تعالى:﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلاّ إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ

السَّاجِدِينَ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ قَالَ لَمْ أَكُنْ لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ (الحجر 28-35)

وعن حكم الاستعاذة عند قراءة القرآن، فالراجح أنّ قراءتها مستحبّة وليست واجبة، وهذا الذي ذهب إليه جمهور العلماء. وتُقرأ الاستعاذة قبل الشروع بتلاوة القرآن لقوله تعالى:﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (النحل 98) أي: إذا أردت أن تقرأ القراءة أو تشرع في قراءته أو قصدت ذلك فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم.

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

اتفق العلماء على أن البسملة بعض آية من سورة النمل في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾(النمل 30) واختلفوا في كونها آية من الفاتحة، أومن كلّ سورة أو خلاف ذلك، والأقوال في هذا متنوعة[١]، ولا مجال لسرد الخلاف هنا، لأنّ العبرة بوجودها وغايته ا أبلغ لدينا من سرد الخلاف حولها، مع ترجيحي للقول الذي يعدّها آية من آيات الفاتحة، فيكون عدد آياتها سبعاً. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ (الحجر 78) لذلك فإنّ حكم الجهر بها متفرّع عن هذا الخلاف، لكنّ الذي يهمنا أنّ العلماء أجمعوا على صحة صلاة من جهر بالبسملة ومن أسر بها في الصلاة. [٢]

وعن فضلها يقول الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود ﷺ: (من أراد أن ينجيه الله من الزبانية التسعة عشر فليقرأ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ فيجعل الله له من كل حرف منها جِنّة من كل واحد)[٣]. حيث إنّ عدد حروف البسملة تسعة عشر حرفا.

---

١ أنظر خلاف العلماء في: تفسير ابن كثير ج1:ص17

٢ أنظر: المصدر السابق ج1:ص18

٣ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ج1:ص18

ولفظ الجلالة (الله) هو الاسم الجامع لصفات الكمال. وقيل (الرحمن) أبلغ من (الرحيم) فحينما يرد اسم (الرحمن) فهذا يعمّ برحمته المؤمن والكافر، أمّا اسم (الرحيم) فهو يخص في الغالب المؤمن.[١]

والبدء بالبسملة يعني الاستعانة بلله بداية كلّ أمر، وهو من قبيل التوكل على الله، لحاجة العبد إليه في قضاء حوائجه، ولأنّه سبحانه جعل في حياتنا مبدأ الأخذ بالأسباب، أمّا تحقق الفعل فلا يكون إلاّ بقدرته وتيسيره. وبقراءتها في أيّ موطن يستحضر المؤمن عظمة الله عزّ وجل، حيث إنّ أمر الخلائق مرهون بالله وحده، فهو وحده الآمر النّاهي، ولا يسع العباد إلاّ التسليم المطلق لأوامره ونواهيه، الأمر الذي يمنعهم من التسمية على كلّ فعل محرّم لامتناع ذلك شرعا وعقيدة، لأنّ العبد إذا أقبل على فعلٍ ما، وقال (بسم الله) فقد دخل على الفعل باسم الله الذي سخّره له، فالذبائح - مثلاً - حرام أكلها من غير ذكر اسم الله، مع أنّ ذاتها واحدة بوجود التسمية أو عدمها، لكن ذكر اسم الله عند الذبح يفتح باب الحلال، لأنّه سبحانه الذي أباح لنا أكلها، فاستحضار اسمه عند الذبح يعني استحضار الحكم الذي لا يملك حقّ تقريره إلاّ الله وحده. فلا يتجاوز المؤمن حدوده بعد ذكر اسمه، أو

---

١ أنظر: تفسير البيضاوي 39/1

يخالف تعاليمه وأحكامه، وهذا الأمر ينعكس على سلوك العارفين بالله، الخاضعين لمطالبه، المتصلين بأحكامه، المتوكلين عليه، والمستعينين به.

﴿ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

بدأ الله تعالى فاتحة كتابه الكريم ـ بعد ذكر البسملة ـ بالحمد والثناء على نفسه لاستحقاقه كمال ذلك دون سواه، لأنّه الربّ الخالق الرازق المتفضل بنعمه على عباده. فيكون حمد العبد الشاكر لله محاطاً بسياج الربوبيّة الحافظ له، ولا يكون كمال الحمد إلاّ لكمال المحمود.

وظاهر الآية فيها ثناء الله على نفسه، إلاّ أنّها متضمنة في دلالتها أمره عباده لأن يثنوا عليه. ولم يذكر الباري عزّ وجل هنا وقتا أو مكانا للحمد، وإنّما ذكره في موطن آخر بظرفه المكاني بقوله: ﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ (الروم 18) وبظرفه الزماني بقوله: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَى وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (الاسراء 70)

وفي الحمد ثناء على المنعم المتفضل، وشكر له على عظيم عطائه. يقول الإمام الغزالي: (والشكر من المقامات العالية وهو أعلى من الصبر والخوف والزهد وجميع المقامات، لأنه غير مقصود لنفسه وإنما يُراد لغيره، فالصبر يراد به قهر الهوى، والخوف صوت يسوق الخائف إلى

المقامات المحمودة، والزهد يصرفه عما يشغله عن الله، وأما الشكر فمقصود في نفسه وذلك لا ينقطع في الجنة، فكان آخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) [١]

وما من شيء في الكون إلاّ يسبّح بحمد الله ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّماَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إلاّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (الاسراء 44) فالحامد لله هو العبد المقرّ بكمال نعمته، المتيقن بأنّه سبحانه مصدر كلّ نعمة في الوجود ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ (النحل 53) ولا حصر لنعمته ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (النحل 18)

لذا يلزم العبد المؤمن أن لا يدع سبيلاً يحقق فيه كمال الحمد إلاّ وأخذ به. فسلامة الاعتقاد بالله بكلّ صورها، وحسن الأداء للعبادات بجميع أشكالها، يُحققان جانباً من جوانب الحمد للمنعم المتفضّل، إضافة إلى الحمد المتصل بالنّعم التي أنعمها الله على عباده بما رزقهم من مقومات الحياة، وأسباب البقاء فيها.

---

١ انظر: التيسير بشرح الجامع الصغير، المناوي ج1/ص508

عن ابن عمر ﵁ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَدَّثَهُمْ : (أَنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ قَالَ يَا رَبِّ لَكَ الْحَمْدُ كَمَا يَنْبَغِي لِجَلَالِ وَجْهِكَ وَلِعَظِيمِ سُلْطَانِكَ فَعَضَّلَتْ بِالْمَلَكَيْنِ فَلَمْ يَدْرِيَا كَيْفَ يَكْتُبَانِهَا فَصَعِدَا إِلَى السَّمَاءِ وَقَالَا يَا رَبَّنَا إِنَّ عَبْدَكَ قَدْ قَالَ مَقَالَةً لا نَدْرِي كَيْفَ نَكْتُبُهَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا قَالَ عَبْدُهُ مَاذَا قَالَ عَبْدِي قَالا يَا رَبِّ إِنَّهُ قَالَ يَا رَبِّ لَكَ الْحَمْدُ كَمَا يَنْبَغِي لِجَلَالِ وَجْهِكَ وَعَظِيمِ سُلْطَانِكَ فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمَا اكْتُبَاهَا كَمَا قَالَ عَبْدِي حَتَّى يَلْقَانِي فَأَجْزِيَهُ بِهَا) [١]

وعن أنس بن مالك ﵁ عن النبي ﷺ قال: (لو أن الدنيا كلها بحذافيرها بيد رجل من أمتي ثم قال الحمد لله لكان الحمد لله أفضل من ذلك كله)[٢]. لأن ثواب الحمد لا يفنى ونعيم الدنيا لا يبقى قال الله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلا ﴾ (الكهف 46) وهل هناك أعظم من الحمد لأن يكون رصيدا للمؤمن في سجلّ الباقيات الصالحات من أعماله.

---

١ ابن ماجة، كتاب: الأدب ، باب: فضل الحامدين، رقم الحديث (3801)

٢ كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ، المتقي الهندي، ج3/ص103، نوادر الأصول في أحاديث الرسول، الترمذي، ج2/ص267.

وحمد العبد لله في الدنيا الثناء عليه رجاء رحمته وطلب هدايته ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ أمّا في الآخرة فهو من قبيل شكره على صدق وعده، ونعيم جنّته ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ (الزمر 74)

﴿ رب العالمين ﴾ الرب في الأصل مصدر بمعنى التربية، وهي تبليغ الشيء إلى كماله شيئا فشيئا.[١] وكلمة الرب في اللغة تُطلق على السيد المربي والمتصرف في الأمر. ومنه قوله تعالى في سورة يوسف: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ (يوسف 42) وفي حديث النبي ﷺ عن علامات الساعة عندما سأله جبريل عنها، وهو الحديث المشهور الذي رواه عمر بن الخطاب ؓ ، قال ﷺ: (إذا ولدت المرأة ربّتها)[٢] وورد بلفظ (أن تلد الأمة ربّتها) [٣] أي سيدتها. فالله عزّ وجل لم يخلق الخلق ثمّ يتركهم، إنّما تعهدهم بالرعاية والحفظ والتربية.

---

١ انظر: تفسير البيضاوي ج1:ص 51، 52

٢ صحيح البخاري، كتاب: تفسير القرآن، باب: قوله تعالى: ﴿إنّ الله عنده علم الساعة .. ﴾ رقم الحديث (4499)

٣ صحيح مسلم، كتاب: الإيمان، باب: الإيمان والإسلام، رقم الحديث (8)

و لفظ (العالمين) يشمل في معناه كلّ موجود سوى الله تعالى[١] ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ, قَالَ رَبُّ السماوات وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ (الشعراء 23، 24) فهو المربي لجميع العالمين، بخلقه لهم وإعداده لهم، وإنعامه عليهم بالنعم العظيمة التي لو فقدوها لم يمكنهم البقاء، فما بهم من نعمة فمنه تعالى، وتربيته تعالى لخلقه نوعان عامة وخاصة، فالعامة : (هي خلقه للمخلوقين ورزقهم وهدايتهم لما فيه مصالحهم التي فيها بقاؤهم في الدنيا) والخاصة هي : (تربيته لأوليائه فيربيهم بالإيمان ويوفقهم له ويكمله لهم ويدفع عنهم الصوارف والعوائق الحائلة بينهم وبينه، وحقيقتها تربية التوفيق لكل خير والعصمة عن كل شر، ولعل هذا المعنى هو السر في كون أكثر أدعية الأنبياء بلفظ الرب فإن مطالبهم كلها داخلة تحت ربوبيته الخاصة). [٢]

وأخيراً : فإنّ الحمد المتصل بتوحيد الربوبية المطلقة لله تعالى، يجعل أتباع الدين الإسلامي أظهر في دائرة التميّز العقدي، وأقدر على مواجهة الفوضى الاعتقادية التي تسود العالم بسبب بعدهم عن الوحي الإلهي، أو بسبب تحريفهم له، وهذا الذي وقع من قبل، ثمّ استمرّ بعد ذلك بأشكال

---

١ انظر: الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي، ج1:ص139

٢ تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن السعدي، ج1:ص39

مشابهة أو مختلفة، سواء في أوساط أهل الشرك حيث دعواهم في تبرير عبادتهم للأصنام ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ (الزمر 3) أو في أوساط المنحرفين عن منهج الله من أهل الديانات السابقة الذين ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لا إِلَهَ إِلاّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (التوبة 31)

وفي توحيد الربوبية تخفيف على العباد من زحمة الأرباب المتفرقة، الباعثة للحيرة والشكّ في خضمّ تعددها، وتفاوت مطالبها، وتباين مراتبها. قال سبحانه: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (المؤمنون 91) وهذا الفساد في الاعتقاد يُحدث خللاً كبيرا في صياغة الأهداف التربوية واستقرارها، وكذلك في تقرير المناهج المتصلة بها، بسبب المفارقات الهائلة في ميدان الفكر البشري، حيث تخيّم الأوهام، وتسود الظنون، ويتفاقم الشك في مصداقية القيم التربوية المتمخضة عن أصل العقيدة التي انحرفت وفسدت بسبب الشرك بالله تعالى. قال تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (الأنبياء 22) ثمّ إنّ الإيمان المطلق بصفة الربوبيّة، يجعل جميع الخلائق في دائرة واحدة، لأنّها جميعا - بتنوعها وتباينها- من صنع الله، ولا غرابة من أن تنشأ بينها صلة إيمانية من نوع معين، فلا نُريد أن نبعد في تقرير الحقائق دون تعزيزها بصحيح

الدلائل عن رسول الله ﷺ ، فعن أَنَس بن مالك رضي الله عنه قال: (خَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى خَيْبَرَ أَخْدُمُهُ فَلَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ رَاجِعًا وَبَدَا لَهُ أُحُدٌ قَالَ هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ)[1] ليعبّر عن حقيقة المشاعر الإيمانيّة المتوهجة التي لم يُخفها النبي ﷺ رغم غرابتها في ظاهر أمرها، كما لم يكتم ذلك الجذع من النخل الذي كان يخطب من فوقه رسول الله ﷺ يوم الجمعة في مسجده، مشاعره وأحاسيسه (وهو الجماد) نحو أنيسه وحبيبه المصطفى محمد ﷺ فانطلقت منه نغمات الحزن والحنين بعد أن غادره النبي ﷺ ليرتقي منبره الجديد.

فعن جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه قال: (كَانَ الْمَسْجِدُ مَسْقُوفًا عَلَى جُذُوعٍ مِنْ نَخْلٍ فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا خَطَبَ يَقُومُ إِلَى جِذْعٍ مِنْهَا فَلَمَّا صُنِعَ لَهُ الْمِنْبَرُ وَكَانَ عَلَيْهِ فَسَمِعْنَا لِذَلِكَ الْجِذْعِ صَوْتًا كَصَوْتِ الْعِشَارِ (من الحنين) حَتَّى جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ

---

[1] صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب: فضل الخدمة في الغزو، رقم (2732) ؛ وصحيح مسلم، كتاب الحج، باب: أحد جبل يحبنا ونحبّه، رقم (1393)

فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهَا فَسَكَنَتْ)[١]. وفي رواية ابن ماجة والإمام أحمد أنّ النبي ﷺ قال بعد أن احتضنه: (لو لم أحتضنه لحنّ إلى يوم القيامة)[٢]

لتدلّ هذه الآثار وغيرها ممّا لا يتسع المجال لسردها، على حقيقة العلاقة الإيمانيّة بين العابدين لله، المسبحين لعظمته ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (الاسراء 44) الساجدين له وحده ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ (الحج 18) على الرغم من تباين السمات والصفات والخصائص. وهذا الاعتقاد يعزز شموليّة الفكر الإسلامي، فلا يقف أصحابه عند حدود الملموسات والمشاهدات فحسب، بل ينبغي الانبساط في ظلال القيم التربويّة الإيمانيّة التي أضفتها عقيدة الإسلام، ليكون العقل البشري في متسع من النظر والقياس والاستنتاج، وبالتالي يكون أقدر على التحديث والتجديد في

---

١ صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب: علامات النبوّة في الإسلام، رقم الحديث (2392) ؛ وسنن الترمذي (عن ابن عمر) كتاب الجمعة، باب: ما جاء في الخطبة على المنبر، رقم الحديث (505) والعشار هي: الحوامل من الإبل التي قاربت الولادة (انظر: فتح الباري ، ابن حجر، ج2/ص400)

٢ ابن ماجة، كتاب إقامة الصلاة والسنّة فيها، باب: ما جاء في بدء شأن المنبر، رقم الحديث (1415) ؛ والإمام أحمد، كتاب مسند بني هاشم، باب: بداية مسند عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما، رقم الحديث (2396)

مظلة النهج الإلهي، وأمكن في التفاعل مع معطيات الحياة بكلّ جوانبها الإيجابية، وأقوى في مواجهة ومعالجة سلبياتها من غير إفراط أو تفريط. وفي ظلّ هذا الاعتقاد فإنّ عناصر الكون تكون جميعها متساندة وليست متعاندة.

﴿الرَّحْمـنِ الرَّحِيمِ﴾

قال عبد الله بن عباس ﷺ: هما اسمان رقيقان أحدهما أرق من الآخر، أي أكثر رحمة.[١] وعن أبي هريرة ﷺ قال قال رسول الله ﷺ (من لم يَسْأَلْ اللَّهَ يَغْضَبْ عليه)[٢] وعن عبد الله بن المبارك قال: (الرحمن إذا سئل أعطى والرحيم إذا لم يسأل يغضب)[٣]

فسؤال المخلوق للمخلوق سؤال الفقير للفقير، والرب تعالى كلما سألته رضي عنك وأحبك، والمخلوق كلما سألته هنت عليه وأبغضك ومقتك وقلاك، ويقال أحب الناس إلى الله من سأله، وأبغض الناس إلى الناس من احتاج إليهم وسألهم، قال الشاعر:

لا تسألن من ابن آدم حاجة وسل الذي أبوابه لا تحجب

---

١ انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ج1:ص19

٢ سنن الترمذي، كتاب : الدعوات، رقم الحديث (3373)

٣ عمدة القاري ج18/ص79؛ تيسير العزيز الحميد، سليمان بن عبد الله، ج1/ص25

الله يغضب إن تركت سؤاله   وبنـي آدم حين يسئل يغضب [1]

واختلف العلماء في دلالة الرحمن والرحيم، هل الرحمن والرحيم بمعنى واحد فجمع بينهما تأكيدا أو بينهما مغايرة بحسب المتعلق؟ فالله رحمن الدنيا ورحيم الآخرة لأن رحمته في الدنيا تعم المؤمن والكافر وفي الآخرة تخص المؤمن، أو التغاير بجهة أخرى فالرحمن أبلغ لأنه يتناول جلائل النعم وأصولها، تقول فلان غضبان إذا امتلأ غضبا. وأردف بالرحيم ليكون كالتتمة ليتناول مادق. [2]

أمّا عن تلازم الصفتين (الرحمن الرحيم) مع لفظ الجلالة (الله) فيرى بعض العلماء أنّ الله وحده المختص باجتماع هاتين الصفتين. فمن الجائز أن يوصف عبد من عباد الله بأنّه رحيم، حيث وصف الله نبيّه بذلك في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة 128) لكن من الممتنع من النّاحية الإيمانيّة أن يوصف عبد من عباده بأنّه رحمان. [3] **يروي النبي**

---

١ انظر: مدارج السالكين، الزرعي، ج2/ص131، والمستطرف، الأبشيهي، ج2/ص116

٢ انظر: فتح الباري ج8/ص155

٣ انظر تفسير: في ظلال القرآن، سيد قطب، ج1، تفسير الفاتحة.

ﷺ عن ربّه فيقول: (قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا اللَّهُ وَأَنَا الرَّحْمَانُ خَلَقْتُ الرَّحِمَ وَشَقَقْتُ لَهَا مِنْ اسْمِي فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلْتُهُ وَمَنْ قَطَعَهَا بَتَتُّ)[١]

وفي الآية ﴿الرحمن الرحيم﴾ وصف الله نفسه بأنه الرحمن الرحيم، بعد أن وصف نفسه بأنّه ﴿رب العالمين﴾ وهي من قبيل الجمع بين الترهيب والترغيب، ليجمع في صفاته بين الرهبة منه، والرغبة إليه، وهذا أعون على طاعة الله، وأمنع لمعصيته[٢]، كما قال تعالى: ﴿نَبِّىءْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ، وَ أَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيم ﴾ (الحجر 49، 50) وقال سبحانه: ﴿ غافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلَهَ إِلاّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِير﴾ (غافر 3)

وعن أبي هريرة - من رواية الإمام مسلم والترمذي- أنّ النبي ﷺ قال: (لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنْ الْعُقُوبَةِ مَا طَمِعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنْ الرَّحْمَةِ مَا قَنَطَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ)[٣]، وزاد الإمام

---

١ سنن الترمذي، كتاب البر والصلة، باب: ما جاء في قطيعة الرحم، رقم الحديث (1907)؛ وسنن أبي داود، كتاب الزكاة، باب: صلة الرحم، رقم الحديث (1694)

٢ أنظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج1:ص139

٣ صحيح مسلم، كتاب: التوبة، باب: في سعة رحمة الله تعالى وأنّها سبقت غضبه، رقم الحديث (2755) ؛ وسنن الترمذي، كتاب الدعوات، رقم الحديث (3542)

أحمد في روايته: (..خَلَقَ اللَّهُ مِائَةَ رَحْمَةٍ فَوَضَعَ رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ خَلْقِهِ يَتَرَاحَمُونَ بِهَا وَعِنْدَ اللَّهِ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ رَحْمَةً)[١]

وفي الجانب التربوي فإنّ صفتي (الرحمان) و (الرحيم) تعززان الثقة المطلقة في قدرته سبحانه على تلبية جميع حوائج العباد، فكما حمدناه لأنّه ربّ العالمين، نحمده كذلك لأنّه رحمان ورحيم، نحمده في اليسر والعسر، في المنشط والمكره، في السقم والعافية، في الفقر والغنى، في الخير والشر، فعن صُهَيْبٍ الرومي، قال : رسول اللَّهِ ﷺ : (عَجِبْتُ لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ ان أَمْرَ الْمُؤْمِنِ كُلَّهُ له خَيْرٌ ليس ذلك لأَحَدٍ الا لِلْمُؤْمِنِ ان أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ وكان خَيْراً وان أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ وكان خَيْراً) [٢]

وظلال رحمة الله يتسع ليشمل جميع خلائقه، وجميع حوائجهم، من غير نقص ولا نفاذ. فديننا دين رحمة، للعالمين بعموميته، وللمؤمنين بخصوصيته، وحينما يرى الناس خلاف ذلك، فلنعم أنّ الخلل قد وقع، إمّا في التصور أو في الأداء، في العقيدة أو في العمل، عندها ينبغي أن نعيد جميع موازين البشر إلى ميزان واحد، هو ميزان ربّ البشر ﴿الرحمان الرحيم﴾ العادل في أحبابه وأعدائه، في أهل طاعته وأهل معصيته.

---

١ مسند أحمد، باب: باقي مسند المكثرين، باب: باقي المسند السابق، رقم الحديث (8210)

٢ مسند الإمام أحمد، ج4/ص 333

وفي صفتي (الرحمان الرحيم) ظلال وافر لمن أراد أن يستظلّ بهما، وكفاية للطالبين رحمته، والسائلين كرمه، والمستعينين بقدرته، خصوصاً إذا بعدت عليهم الشقّة، ونأت بهم قسوة الحياة, وأقلقهم المصير المجهول، فبمنهج الله يمضي العباد ليأنسروا مسيرة الحياة, وطمعاً في رحمته يتهيأ العاملون لما بعد الموت ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ (الصافات 61) ليشمل الهدف التربوي متطلبات الدنيا والآخرة من غير إفراط ولا تفريط، قال تعالى: ﴿ وابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص 77)

وهذا التصوّر يعزز في النفس الإيمانيّة الثقة الكاملة بكفاية المصدر، وسلامة المورد، فلا ينبغي الاستطراد فيما وراء ذلك، خصوصاً في ميدان التربية والتعليم، كما يذهب بعض المفكرين إلى إيجاد التزاوج بين العقائد وإن تباينت، وبين المناهج وإن تباعدت، والعزم على إحداث التساند بين المتضادات، والتواد بين المتنافرات، والمزج بين المتغايرات، كلّ ذلك على حساب مقدرات الأمّة من منهج الله تعالى، ونصيبها من رحمة الله، وليس هناك أبلغ من خطاب الله تعالى في مواجهة ذلك، حيث يقول: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ

يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ، قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آَمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (العنكبوت51، 52)

﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾

المالك هو من اتصف بصفة الملك التي من آثارها أنه (يأمر وينهى ويثيب ويعاقب ويتصرف بمماليكه بجميع أنواع التصرفات وأضاف الملك ليوم الدين وهو يوم القيامة يوم يدان الناس فيه بأعمالهم خيرها وشرها لأن في ذلك اليوم يظهر للخلق تمام الظهور كمال ملكه وعدله وحكمته وانقطاع أملاك الخلائق حتى إنه يستوي في ذلك اليوم الملوك والرعايا والعبيد والأحرار كلهم مذعنون لعظمته خاضعون لعزته منتظرون لمجازاته راجون ثوابه خائفون من عقابه فلذلك خصه بالذكر وإلا فهو المالك ليوم الدين ولغيره من الأيام).[١]

وكذلك فإنّ إضافة الملك ليوم الدين، لأنه لا يدعي أحد هنالك شيئا ولا يتكلم أحد إلا بإذنه سبحانه جلّ في علاه، قال تعالى ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾

---

١ تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمان السعدي، ج1:ص39، وأنظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ج1:ص 26،25

وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَت الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ (طه 108) وقال: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ (هود 105)

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : (يقْبِضُ اللَّهُ الأَرْضَ وَيَطْوِي السَّمَوَاتِ بِيَمِينِهِ ثُمَّ يَقُولُ أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ مُلُوكُ الْأَرْضِ)[١] وعنه أيضا عن النبي ﷺ قال: (إِنَّ أَخْنَعَ اسْمٍ عِنْدَ اللَّهِ رَجُلٌ تَسَمَّى مَلِكَ الأَمْلَاكِ، لا مَالِكَ إِلاّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ)[٢] وعنه كذلك، قال ﷺ: (أَغْيَظُ رَجُلٍ عَلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَخْبَثُهُ وَأَغْيَظُهُ عَلَيْهِ رَجُلٌ كَانَ يُسَمَّى مَلِكَ الأَمْلَاكِ لا مَلِكَ إِلاّ اللَّه)[٣]

وربما يقول قائل: كيف قال الله تعالى: ﴿مالك يوم الدين﴾ ويوم الدين لم يوجد بعد فكيف يصف نفسه بمالك يوم قبل أن يوجد؟ والجواب على ذلك هو: أنّ الوعد الإلهي واقع لا محالة في ذلك ولا ريب، حيث لا عبرة بالزمن في تحقق وقوعه في ميدان القدرة الإلهيّة المطلقة، فقدرة الله

---

١ صحيح البخاري، كتاب: تفسير القرآن، باب: قوله تعالى: ﴿والأرض جميعا قبضته يوم القيامة﴾ رقم(4534)؛ وصحيح مسلم، كتاب: صفة القيامة والجنّة والنار، رقم (2787)

٢ صحيح البخاري، كتاب: الآداب، رقم (5853) ؛ وصحيح مسلم، كتاب: الآداب، باب: تحريم التسمي بملك الأملاك وبملك الملوك، (2143) . واللفظ لمسلم.

٣ صحيح مسلم، كتاب: الآداب، باب: الآداب، باب: تحريم التسمي بملك الأملاك وبملك الملوك ، رقم (2143) ؛ ومسند أحمد، كتاب: باقي مسند المكثرين، رقم (27393)

على إحداث الأمر واحدة، سواء كان في الماضي أم في الحاضر أم في المستقبل، وحديثه عن أمر مضى مثل حديثه عن أمر سيقع في المستقبل، لأنّه ﴿إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُون﴾ (يس 82) ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّوَرِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ (الأنعام 73) فهو سبحانه يملك الأمر الذي وقع، ويملك ما هو واقع الآن، ويملك ما سيقع في مستقبل الزمان، في أيّ مكان كان.

﴿يوم الدين﴾ اليوم عبارة عن وقت طلوع الفجر إلى وقت غروب الشمس فاستعير فيما بين مبتدأ القيامة إلى وقت استقرار أهل الدارين فيهما، وقد يطلق اليوم على الساعة منه كما قال الله تعالى: ﴿اليومُ أكملتُ لكم دينَكم﴾. (المائدة 3)

و(الدين) هو الجزاء على الأعمال والحساب. قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ (النور 25) أي حسابهم. وقال ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (غافر 17) وقال تعالى: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ

، يقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ، أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُون ﴾ (الصافات 51- 53) أي مجزيون محاسبون. [١]

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ شاهد على هذا المعنى، وفيه يقول: (الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ) [٢] أي حساب نفسه في الدنيا قبل أن يحاسبه الله يوم القيامة. ويُروى عن عمر بن الخطاب ﷺ أنّه قال: (حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا وَتَزَيَّنُوا لِلْعَرْضِ الْأَكْبَرِ وَإِنَّمَا يَخِفُّ الْحِسَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ فِي الدُّنْيَا) قال تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ (الحاقة 18) وكذلك يُروى عن ميمون بن مهران أنّه قال: (لا يَكُونُ الْعَبْدُ تَقِيًّا حَتَّى يُحَاسِبَ نَفْسَهُ كَمَا يُحَاسِبُ شَرِيكَهُ مِنْ أَيْنَ مَطْعَمُهُ وَمَلْبَسُهُ) [٣]

وفي الآية قراءة أخرى بلفظ ﴿ملِك يوم الدين﴾ بكسر اللام، فالمالك هو المتصرف في الأعيان المملوكة كيف يشاء من الملك، والملك هو المتصرف بالأمر والنهي في المأمورين من الملك [٤].

---

١ انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج1:ص143، تفسير ابن كثير ج1:ص26.
٢ سنن الترمذي، صفة القيامة والرقائق والورع، رقم(2459) (وقال عنه: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ)
٣ المصدر السابق.
٤ انظر: تفسير البيضاوي، ج1/ص54-57

ودلالة القراءتين هو الجمع بين الملك المطلق والحكم المطلق لله تعالى وحده، لأنّ المالك يملك وقد لا يحكم، والمَلِك يحكم وقد لا يملك، وبما أنّ الله عزّ وجل له الملك والحكم، فهو مالك ليوم الدين، وملِك يوم الدين، بلا شريك أو منازع.

وملك الله ليوم الدين يعني انفراده بالتصرّف المطلق في أمر الخلائق التي تفد إليه فيه، قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ (غافر 16) وقال تعالى:﴿يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ (الانفطار 19) وفي ظلال هذا الاعتقاد، لا مناص للعباد من اختيارٍ صائب في العقيدة والعبادة، ليكون أمرهم أقرب إلى برّ الأمان، منه إلى حافّة الهاوية .

ودلالة الآية من الناحية التربوية، أنّ الذي يؤمن بيوم الدين، يكون أقدر على خوض صراع التجاذب بين مطالب الدنيا ومطالب الآخرة، وعلى الموازنة بين عناصرهما، فالاعتقاد الجازم بعالم الآخرة سلاح المؤمن في معركة الريب التي تعصف بالبشرية في ظلّ غياب اليقين، وفي ظلّ زعزعة العقائد في نفوس البشر عندما تبعد عن منظومة العقيدة التي أرسى قواعدها الوحي الإلهي.

ولأجل أن تكون حركة العباد في الحياة متناسقة في خطواتها، متناغمة في عناصرها، خاضعة لسنن الله الكونية والشرعية، لابدّ أن يكون مبدأ التوازن بين مطلبي الدنيا والآخرة منطلقا نحو فاعلية العباد في إطار منهج تربوي فاعل، قال تعالى: ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (المؤمنون 77) ليبقى نصيب الآخرة هو الابتغاء (وابتغ) ونصيب الدنيا هو التذكّر (ولا تنس) واجتهاد العباد بين مراد المطلبين شرطه أن لا يطغى أحدهما على الآخر، وفي ضوء هذه النظرة المتوازنة تُصاغ الأهداف التربوية، والمناهج المناطة بها، من غير إفراط ولا تفريط.

وكذلك فإنّ الاعتقاد المطلق بملك الله ليوم الدين يعمّق الشعور بالحاجة إلى رحمة الله خصوصاً في ذلك اليوم، لأنّ الغنيّ والفقير فيه سواء, فالكلّ مجرّد من التملك وأسبابه. وهذا الشعور يخفف من معياريّة التفاضل بين النّاس في الدنيا على أساس التفاوت بين الفقراء والأغنياء، أو بين الحاكم والمحكوم، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات 13) وقال ﷺ: (إن ربكم واحد وأباكم

واحد ولا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي ولا احمر على اسود ولا اسود على احمر إلا بالتقوى)[١]

وكلّ ذلك يخفف من الرغبة الجامحة في حبّ التملك والسلطان. فالملك والحكم لا يدومان لأحد، والنّاس جميعاً أمناء على ملك الله وعلى عباد الله، فالمسؤولية هنا مسئوليّة تكليف لا تشريف، وهذا الشعور يجعل الشخصيّة الإسلاميّة أقرب إلى التحرر من أنانيّة الذات، وتغليب مصالحها، ليكون المرء أقلّ رغبة في استعباد النّاس، سواء في سلطان المال أو الجاه أو الحكم.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُد وإِيَّاكَ نَسْتَعِين ﴾

عندما يتلو العبد في الصلاة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ مالك يوم الدين﴾ فإنّ فكره يجوب في مقام الغَيْب، فإذا ذكر﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ كأنّه ينتقل من ميدان الغَيب إلى مقام الحضور، لتعلو درجاته، ويزداد قربه من مولاه وسيده. ولهذا عندما سأل جبريلُ النبيَّ ﷺ عن الإحسان، قال له ﷺ: (أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاك)[٢]

---

١ المعجم الأوسط ج5/ص86

٢ انظر تمامه في: البخاري، كتاب الإيمان رقم (50) ، ومسلم، كتاب الإيمان، رقم (8)

ولأهميّة هذه الآية يقول بعض السلف: الفاتحة سر القرآن وسرها هذه الكلمة ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ [1]

وتقديم العبادة على الاستعانة هنا هو من باب تقديم العام على الخاص، واهتماما بتقديم حق الله على حق عباده. وكذلك من قبيل تقديم الوسيلة على طلب الحاجة، وهذا أدعى للقبول والإجابة. وكذلك لتكون جميع عناصر العبادة والاستعانة محصورة لأجل الحقّ وحده دون سواه. فلو قلنا (نعبد إيّاك) لكان من المحتمل أن تُصرف وجهة العبادة لغير الله، وهذا ممتنع في حقّ الله سبحانه. وقيل الواو للحال والمعنى نعبدك مستعينين بك.[2]

ومعنى: ﴿إياك نعبد﴾ أي نخصّك وحدك بالعبادة والطاعة ﴿وإياك نستعين﴾ نطلب منك وحدك العون والتأييد والتوفيق. فالفخر أن نكون عبادا لله، والمذلة بخلافها، يقول علي بن أبي طالب ﷺ: (كفى بي فخرا أن أكون لك عبدا وكفى بي شرفا أن تكون لي ربا) [3]. وجاء لفظ الخطاب بـ (إيّاك نعبد) ولم يرد بلفظ (إيّاه نعبد) للدلالة على أنّ المعبود

---

١ انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ج1/ص26
٢ انظر: تفسير البيضاوي ج1:ص69،70، وتفسير السعدي ج1/ص39
٣ التفسير الكبير ، فخر الدين الرازي، ج1/ص203

ـ وهو الحقّ سبحانه ـ حاضر في الذهن والفؤاد، لا يغيب حضوره عن ميدان العبادة والاستعانة.

وورد الخطاب بصيغة الجمع (نعبد) للتوكيد على جماعيّة العبادة والوجهة والاستعانة، وللدلالة على أهميّة الجماعة في صيانة وحماية وتعزيز عبادة الفرد داخل مجموعته، ثمّ شموليّة البركة والرحمة الربانيّة لعباد الله المجتمعين على ذكره وطاعته. فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (إِنَّ لِلَّهِ مَلائِكَةً يَطُوفُونَ فِي الطُّرُقِ يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَنَادَوْا هَلُمُّوا إِلَى حَاجَتِكُمْ قَالَ فَيَحُفُّونَهُمْ بِأَجْنِحَتِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا قَالَ فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ مِنْهُمْ مَا يَقُولُ عِبَادِي قَالُوا يَقُولُونَ يُسَبِّحُونَكَ وَيُكَبِّرُونَكَ وَيَحْمَدُونَكَ وَيُمَجِّدُونَكَ قَالَ فَيَقُولُ هَلْ رَأَوْنِي قَالَ فَيَقُولُونَ لا وَاللَّهِ مَا رَأَوْكَ قَالَ فَيَقُولُ وَكَيْفَ لَوْ رَأَوْنِي قَالَ يَقُولُونَ لَوْ رَأَوْكَ كَانُوا أَشَدَّ لَكَ عِبَادَةً وَأَشَدَّ لَكَ تَمْجِيدًا وَتَحْمِيدًا وَأَكْثَرَ لَكَ تَسْبِيحًا قَالَ يَقُولُ فَمَا يَسْأَلُونِي قَالَ يَسْأَلُونَكَ الْجَنَّةَ قَالَ يَقُولُ وَهَلْ رَأَوْهَا قَالَ يَقُولُونَ لا وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا قَالَ يَقُولُ فَكَيْفَ لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا قَالَ يَقُولُونَ لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ عَلَيْهَا حِرْصًا وَأَشَدَّ لَهَا طَلَبًا وَأَعْظَمَ فِيهَا رَغْبَةً قَالَ فَمِمَّ يَتَعَوَّذُونَ قَالَ يَقُولُونَ مِنْ النَّارِ قَالَ يَقُولُ وَهَلْ رَأَوْهَا قَالَ يَقُولُونَ لا وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا قَالَ يَقُولُ فَكَيْفَ لَوْ

رَأَوْهَا قَالَ يَقُولُونَ لَوْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ مِنْهَا فِرَارًا وَأَشَدَّ لَهَا مَخَافَةً قَالَ فَيَقُولُ فَأُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ قَالَ يَقُولُ مَلَكٌ مِنْ الْمَلائِكَةِ فِيهِمْ فُلانٌ لَيْسَ مِنْهُمْ إِنَّمَا جَاءَ لِحَاجَةٍ قَالَ: هُمْ الْجُلَسَاءُ لا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ)[١]

وفي الجانب التربوي فإنّ التخصيص في (إيّاك نعبد وإيّاك نستعين) أفاد الأمور التالية:

أولا: الحصر المطلق للعبوديّة والاستعانة، وهي غاية عظمى يسعى إليها أصحاب الفكر التربوي الإسلامي، لأنّه في ظلّ هذا الاعتقاد تتحرّر مسيرة الفكر الإسلامي من الأوهام والخرافات التي تنشأ خارج هذا المعتقد، ومن قلق الحيرة حينما لا تكون الاستعانة بالله سبحانه، فلا خضوع إلاّ لله، ولا تذلّل لأحد سواه، ولا سجود إلاّ لعظمته سبحانه، فالله ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (الحديد 3) وفي ظلّ هذا التصور تكون الشخصيّة الإيمانية أكثر استقرارا، وأشدّ تثبيتا، وأقدر على مواصلة طريق الحياة في ظلال منهج الله بكلّ ثبات ويقين،حيث لا يعتريها ضعف،ولا يُفزعها قلق،ولا يغشاها ريب. قال تعالى: ﴿ وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران 139)

---

١ صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب : فضل ذكر الله عزّ وجل، رقم الحديث (6045)؛ ومسلم، كتاب الذكر والدعاء، رقم الحديث (2689)

ثانياً: كون أنّ الله تعالى وحده هو المعبود، فيه جانب ترغيبي، فهناك فرق بين عبوديّة الإنسان للإنسان، وبين عبوديّة الإنسان لله، فعبوديّة الإنسان للإنسان بغيضة، لأنّها تُعطي خير العبد لسيّده، أمّا عبوديّة الإنسان لله فهي محبوبة، لأنّها تُعطي خير الله لعبده، ويُعدّ هذا الترغيب من الحوافز الهامّة نحو تحقيق الهدف التربوي الشامل ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات 56)

ثالثاً: تورث العبوديّة لله حريّة للمكلفين، على خلاف عبوديّة البشر لبعضهم، التي تُورث لهم المذلّة والمهانة، فالذي يكون عابداً لله، ينطلق بحريّة العبوديّة في آفاق الكون والحياة، لا يخشى ولا يخاف أحداً من الخلق، ولا يخضع لسلطان غير سلطان الله، ولا يرضى بحكم غير حكم الله، وبذلك يتحرر الإنسان عقيدة وسلوكا من ذلّ العبودية لغير الله، وهذا هدف تربوي سامي، ليكون الله وحده الأمل المنشود، والغاية العظمى.

ولعلّ في موقف السحرة مع فرعون – ربّهم المزعوم – لحظة انفجار بركان الإيمان في صدورهم، خير شاهد على تصور المساحة الشاسعة بين شخصيتين وعقيدتين وسلوكين، كلّها انبعث من ذات واحدة ، لم تتغيّر في شكلها ولا في هيئتها، وإنّما تغيّرت بعقيدتها وتصورها وولائها، قبل لحظات كان سقف إيمانهم ربّهم الأعلى في

زعمه، الأدنى في حقيقته، فرعون، رمز الطغيان في الأرض، وبعد لحظات يتبدل الموقف، وتجري الرياح بما لا تشتهي سفينة فرعون، فيجد الإيمان بالله، الأعلى في حقيقته، طريقه إلى قلوب السحرة، وإذا بالعالم يقف أمام رمز التحدي لطاغية الأرض، وأمام ملحمة إيمانية، انتصرت فيها قيم الحقّ الثابتة الباقية، على قيم الباطل الزائلة الفانية ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ﴾ (الرعد 17)

ومشهد الصراع بين الحقّ والباطل، يصوّره الباري عزّ وجل في سورة (طه) بقوله: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ ألقى، قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى، فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ، فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى، قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ، قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ

مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (طه 65- 73)

فلا إيثار للزائل على حساب الباقي، ولا للذلّ على حساب الكرامة، إنّه لمشهد حيّ متجدد، يحكي لأجيال الإيمان ملحمة انتصار اليقين على الريب، والإيمان على الكفر، والحقّ على الباطل. فما أحقر الحياة إذا كان الذلّ ثمن العيش فيها، وما أكرم الموت إذا كان ثمنا لكرامة النفس وعزّتها، فكم من حيّ يعيش ميتا، وكم من ميت يعيش حيا ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ (آل عمران 169)

رابعاً: ما دمنا قد خصصنا الله وحده بالعبادة وحده، فلا مفرّ من حتميّة الصراع الموصول بأسبابه بين أهل الحقّ، جماعة: ﴿إيّاك نعبد وإيّاك نستعين﴾ الذين يرغبون أن يكون الدين كلّه لله - وهذا حقّ له سبحانه- وبين أهل الباطل جماعة ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ (القصص 38) الذين يرغبون أن تكون العبادة لغير الله لينتزعوا حقّ الله على العباد ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاّ لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات 56) وفي ظلال هذا الصراع تزداد حاجتنا إلى الله لنستعين به، خصوصا إذا ضعفنا في ميدان المواجهة بسبب بشريتنا وتأثير سماتها، لذا يلزم أصحاب الحقّ أن يعيشوا مراحل الصراع بثقة

عالية دون كلل أو ملل، ليُعيدوا الحقّ إلى صاحبه ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاتَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لله﴾ (الأنفال 39).

وهذا الصراع بكلّ مراحله يقتضي أن يسبقه إعداد تربوي للقاصدين سبيل الله، لأن يستوفوا مراحل التكوين قبل التمكين، لتكون التربية الإسلاميّة بشموليتها لجميع ممارسات العباد، سابقة لمرحلة الجهاد، خصوصاً وأنّ أخلاقيات المجاهد تُشكّل جزءاً كبيراً من نتائج النصر والتمكين، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ (الحج 41).

ومن هنا ينبغي على الأمّة التي تنشد التمكين لدين الله في الأرض، أن تأخذ بأسبابه، وأهمّها: التكوين والإعداد، فبين التكوين والتمكين مسيرة طويلة وشاقّة ، لا يُدرك غورها إلاّ من عرف حقيقة نواميس الله في نصرة عباده. وشاء الله أن يضرب لنا مثلين ظاهرين:

أ- عن أحوال بني إسرائيل أيّام موسى عليه السلام، حيث مكنهم الله بمعجزات عظيمة، لكنّ تكوينهم التربوي، وإعدادهم السلوكي، لم يكن بالمستوى المطلوب الذي يُقابل نِعم المنعم، وكرامة المكرم، بالحمد والشكر اللازمين، قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ، وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ

وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ (القصص آية 5،6) ثمّ بدأ بعد ذلك تكوينهم وإعدادهم في سلسلة شاقة وطويلة أرهقت كاهل موسى عليه السلام، تنوعت صورها في القرآن الكريم حيث لا يتسع المقام لذكرها، أوشكت نهايتها في ذلك الموقف العصيب عندما امتنعوا من دخول الأرض المقدسة، وفي ذلك يقول الحقّ تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ * يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ * قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ * قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ * قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (المائدة 20-26)

فكانت حصيلة المسيرة الهائلة في زمنها وأحداثها، أن هتفوا ﴿اذهب أنت وربك.. ﴾ ليكون بعدها عزاء موسى عليه السلام، النبي المبتلى بقومه

(بني إسرائيل) تلك الصرخة التي تضمنتها مناجاته لربّه في ساعة العسر ﴿قال ربي إنّي لا أملك .. ﴾

ب- عن واقع أمّة محمد، التي تكونت في مسيرة إعداد تربوي وعقدي استمرت (13 سنة) على أرض مكة، وبجوار بيت الله العتيق، وفي ظلال وحيه، قبل أن تتمكن في أرض الدولة والدعوة، في مدينة المصطفى ﷺ ، لتكون الهجرة هي الحدّ الفاصل بين التكوين والتمكين، فأكرمها الله بأن تكون خير أمّة أخرجت للنّاس ﴿كنتم كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (آل عمران 110) وهي القدوة لكلّ تجمّع إيماني تشهده البشرية حتى تقوم الساعة.

خامساً: إنّ عقيدة ﴿إيّاك نعبد وإياك نستعين﴾ في بعدها التربوي، خير سبيل إلى تحرير العباد من وحشة الأساطير والخرافات. فالمخلوق لا يخشى سوى الخالق، وكلّ قوّة في الوجود إنّما هي من صنع وتقدير الباري عزّ وجل، فعلى المؤمن أن يتعرّف عليها ليسخرها ما أمكنه لتحقيق استخلاف الله له في الأرض. ومن هنا فلا يجوز لنا أن نعتقد بما قاله أهل الإلحاد من أنّ الطبيعة هي القاهرة فأطلقوا عبارة (قهر الطبيعة) على بعض الظواهر والأحداث الكونيّة. وإنّما عقيدتنا هي أنّ الله هو ربّ العالمين، له

وحده القوّة القاهرة، سخّر كلّ مخلوقاته، ومن بينها الطبيعة، لتكون رهينة إرادته ومشيئته، ومن ثمّ جعل فاعليّة الوجود لكلّ مخلوقاته متساندة وليست متعاندة، يكمّل بعضها بعضا، وهذا التصوّر ضروري لأنّ يكون جزءاً من قاعدة بناء المناهج التربويّة، ومن ثمّ تعزيز الوسائل ضمن هذا الإطار لتحقيق أفضل النتائج وأشملها.

سادساً: ﴿إيّاك نستعين﴾ تمثّل أساس المنهج الحركي لمسيرة التعليم في الإسلام، فالذي يطلب المعونة من الله يلزمه أن يستنفذ أسبابها، قال تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ (الأنفال 60) فلم يطلب الله المثليّة في الإعداد، وإنّما طلب المستطاع منه، ليبلغ العبد المؤمن الأسباب المناسبة لمصاحبة المعيّة الإلهيّة، فالأخذ بالأسباب وسيلة القاصدين سبيل الحقّ، والمعية الإلهية ثمرة لطاعة أصحابه وتمام عبوديتهم، وبذلك تتحقق النتائج التربويّة بتأييد الله وعونه.

﴿اهدِنَـا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ﴾

الصراط هنا بدل من الصراط المستقيم في الآية السابقة. ومعناه: دلنا وأرشدنا ووفقنا للصراط المستقيم، وهو الطريق الواضح الموصل إلى الله وإلى جنته، وهو معرفة الحق والعمل به، ثمّ أدم هدايتنا عليه,

فإن الإنسان قد يُهدى إلى الطريق ثم يُقطع به. وقيل: الصراط المستقيم هو القرآن الكريم، وقيل هو الإسلام، والمؤدّى في النهاية يصبّ في ذات الدلالة. أي طريق الحقّ الذي ارتضاه الله لعباده، والذي بيّنه في كتبه التي أنزلها، وبرسله الذين بعثهم. ووصفه الله بالاستقامة لأنه صواب لا خطأ فيه ﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (فصلت 42) وفي قوله تعالى: ﴿اهدنا الصراط﴾ تشمل جانبين ، الأول غاية هداية، أي: (اهدنا إلى الصراط المستقيم) وتعني: لزوم دين الإسلام وترك ما سواه من الأديان، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (آل عمران 85) والثاني بيان هداية، أي: (إهدنا بالصراط المستقيم). أي بما فيه من تفاصيل تشمل دلالاته وأحكامه وتعليماته، علما وعملا. قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الشورى 52) وهداية الصراط المستقيم أنواعها كثيرة، من أهمّها:

1- الاهتداء إلى ما يفرّق به الإنسان بين الخير والشر بغية الاختيار بينهما. قال تعالى ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (البلد 10) وقال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ

فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُون ﴾ (فصلت 17)

2- هداية بيان ودلالة، وهذا متحقق بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، لقوله تعالى: ﴿وجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ (السجدة 24) وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ (الإسراء 9) وقوله عزّ وجل لرسوله ﷺ: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الشورى 52)

3- هداية توفيق، قال تعالى: ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ (القصص 56) وقال: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (العنكبوت 69) وقال تعالى: ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ (الأنعام 90) وطلب الهداية هنا إمّا رغبة بتحققها، أو زيادتها، أو الثبات عليها، أو علو مراتبها.

وهذا الدعاء ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ من أجمع الأدعية وأنفعها في حياة المؤمن، ومن عظيم هذا الدعاء أنْ يوجّه الباري عزّ وجلّ عباده إليه، فأعظم أدعية في القرآن الكريم تلك التي اختصّت بطلب الهداية واستقامة الطريق، وأعظم الطرق المستقيمة هو سبيل المؤمنين

الذين أنعم الله به عليهم، خلاف سبيل المغضوب عليهم الذين حرّفوا وبدّلوا.

ولأجل تحقيق كمال العبوديّة والتوكّل لا بدّ من وضوح سبيل الهداية، ومن ثمّ بلوغ استقامة الطريق، وليس بالإمكان تحقيق ذلك من غير صراط الله المستقيم الذي ارتضاه الله لأمّة محمّد ﷺ دون غيرها. وجاء أسلوب اختيار الصراط المستقيم بصيغة الطلب والدعاء ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ لإعلام العباد أنّ مصدر الهداية هو الله، وطالب الهداية إنّما يعبد الله بطلبه واختياره لها، كما جاء وصف الصراط بالمستقيم للترغيب في اختياره، وذلك لسببين:

الأول: أنّه من عند ربّ العالمين الرحمن الرحيم، حيث يستحيل من كانت هذه صفاته أن يختار لعباده طريق الشقاء والعذاب.

الثاني: كون الصراط مستقيماً يجعل اختياره عند أهل الذوق السليم من الأمور البدهيّة التي لا يختلف فيها العقلاء. وحتّى لو لم تكن هناك آخرة كما يدعي الجاحدون المنكرون فيكفي البشريّة ربحاً أنّ حياتها تستقيم بهذا الاختيار كونه مستقيماً غير ذي عوج.

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾

أي: طريق الذي أنعم الله عليهم من الأنبياء وأتباعهم من المؤمنين والصديقين والشهداء والصالحين. لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ (النساء 69)

﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾ أي غير صراط الذين غضب الله عليهم من الأمم السابقة، والذين ضلّوا عن سواء السبيل، واتبعوا أهواءهم، وحرّفوا وبدّلوا وغيّروا. وقيل ﴿المغضوب عليهم﴾ المشركون ﴿الضالين﴾ هم:المنافقون.

وقيل المغضوب عليهم باتباع البدع والضالين عن سنن الهدى.[١]

وفي الآية تحذير من اتباع سبيل المغضوب عليهم وطريق الضالين، وهذا ما وعد النبي ﷺ بحدوثه عندما تتردّى الأمّة وتنحرف عن منهج الله. فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخدري رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ..)[٢]

---

١ أنظر: تفسير الجامع الكبير، القرطبي ج1:ص150

٢ صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، حديث رقم (3269) ؛ وصحيح مسلم، كتاب العلم، حديث رقم (2669)

وفي الجانب التربوي للآية، فإنّ توجيه العباد في الدعاء لطلب الصراط المستقيم، ثمّ لتحديد نوع الصراط ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ المغاير والمخالف لصراط الذين حرّفوا وغيّروا ممن سبقونا من الأمم، فيها دلالة على رغبة الحقّ سبحانه في إيضاح طريق المؤمنين، وتحريرهم من تبعيّة المغضوب عليهم والضالين، ليكون أساس تكوين المنهج التربويّ الإسلامي هو وحي الله سبحانه، وأيّ اقتباس في مكونات مناهج التربية الإسلاميّة يجب أن يخضع لضوابط العقيدة الإسلاميّة، ومحددات الشريعة، وذلك لتعزيز مبدأ الولاء والبراء، لعلمه سبحانه أنّ فتنة الأمّة ستكون في المغضوب عليهم، وفي الضالين، وسيكون لهم نصيب كبير في تغيير معالم الحقّ الذي جاء به الأنبياء والرسل.

وكذلك فإنّ الهداية المرغوبة الوارد ذكرها في سورة الفاتحة، هداية متميزة، خصوصاً وأنّها حُدّدت بالمغايرة مع طريق المغضوب عليهم والضالين، مع أنّها وردت في مواطن في القرآن الكريم لتقابل هداية المشركين, وكفّار العرب. ولعلّها تدلّ هنا على لزوم المفاصلة الفكريّة والسلوكيّة بين دين الإسلام الذي اختاره الله للشموليّة والبقاء، وبين الديانات السابقة له.

ومن هنا ينبغي أن يكون الحوار حوار عقائد وليس حوار حضارات، ليكون أساسه ومنطلقه وحي الله ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران 64) لذلك يلزمنا توضيح الرؤية العقدية لتحديد المواقف والعلاقات, ومن ثمّ تقرير مبدأ (الولاء والبراء) في ضوء معالم طريق الهداية الربانيّة لتحرير ذاتيّة الأمّة المؤمنة، وتعزيز قدرتها على الإبداع في شتّى ميادين الفكر التربوي، فإذا تحررت الأمّة من تبعيّتها لغيرها بفعل استقلاليّة المنهج - بعد توفيق الله- فإنّ ذلك يُعزّز فيها القدرة على النهوض والتميّز في مسيرة التربية والتعليم.

قول (آمين) بعد قراءة الفاتحة في الصلاة:

آمين هي ختم فاتحة الكتاب، وليست آية من الفاتحة، وإنّما هي ممّا أمر النبي ﷺ بقوله في الصلاة أثناء تأمين الإمام، وبعد قوله (ولا الضالين). قَالَ ﷺ: (إِذَا أَمَّنَ الإِمَامُ فَأَمِّنُوا فَإِنَّهُ مَنْ وَافَقَ تَأْمِينُهُ تَأْمِينَ

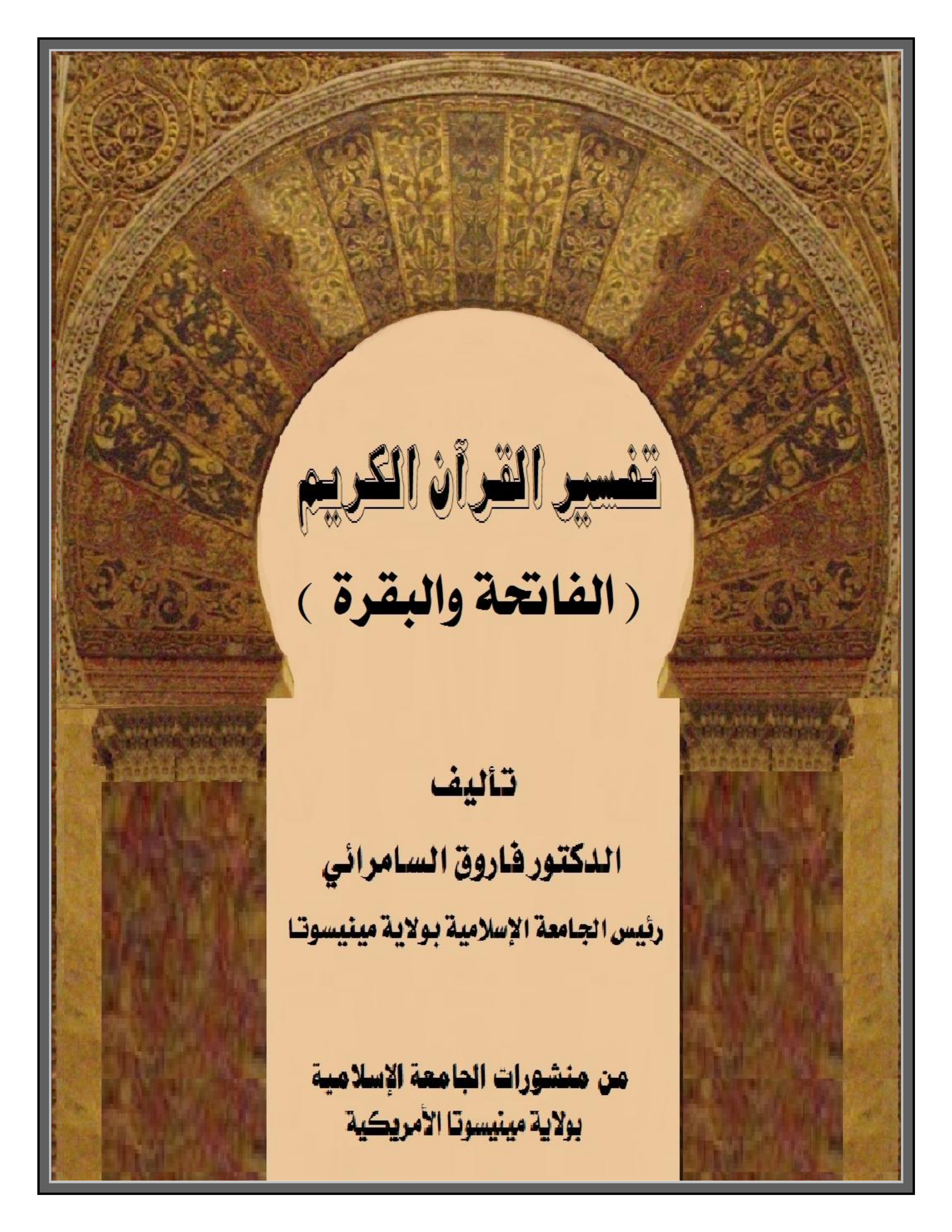
الملائكة غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ)[1] وقال ﷺ:(ماحَسَدَتْكُمْ الْيهودُ عَلَى شَيْءٍ مَا حَسَدَتْكُمْ عَلَى السَّلامِ وَالتَّأْمِينِ)[2].

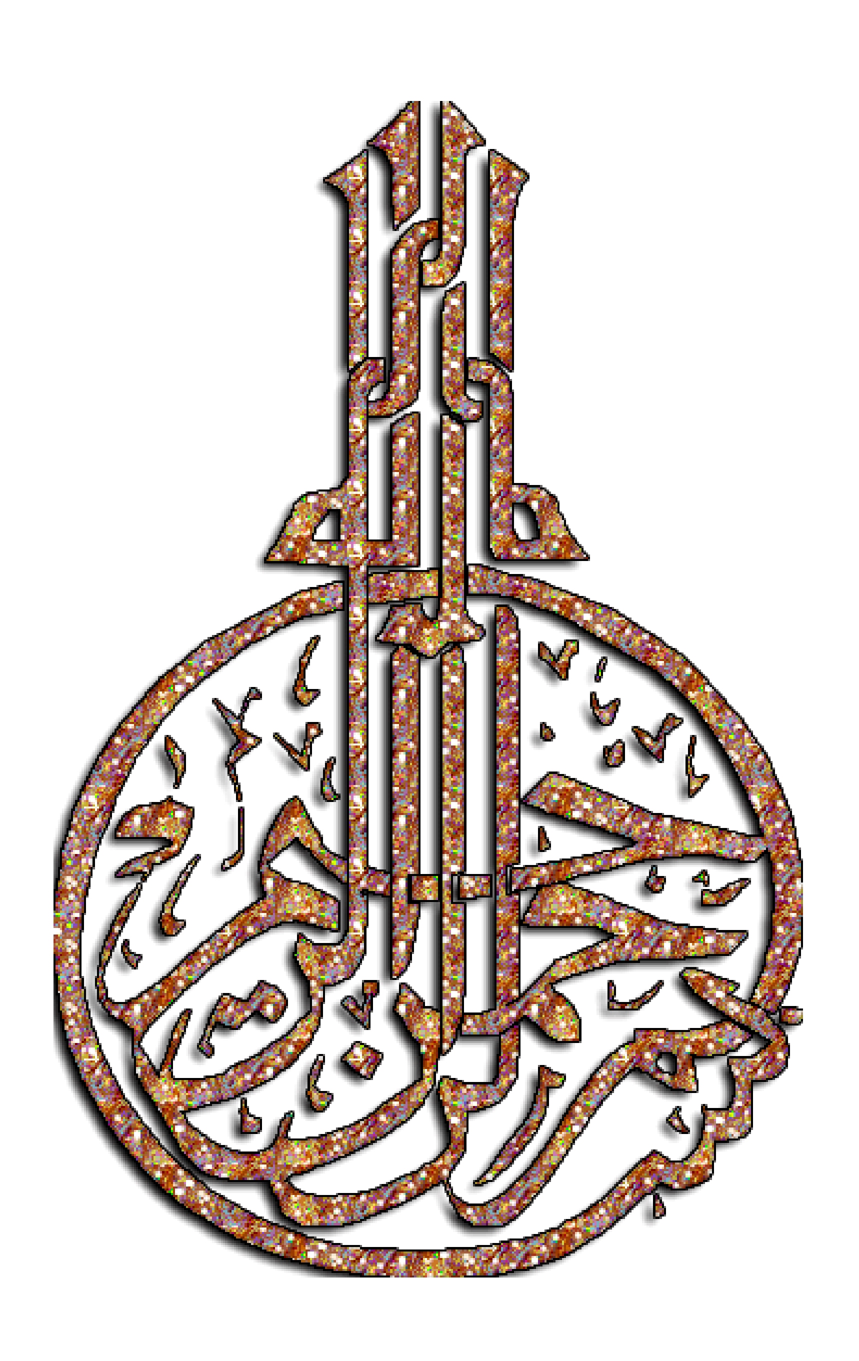
ومعناها: اللهم استجب لنا ما دعوناك في قولنا (اهدنا الصراط المستقيم)، فالدعاء طلب هداية، وآمين دعاء لتحقيق هذا الطلب.

---

١ صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب: جهر الإمام بالتأمين، رقم الحديث (747)؛ وصحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب: التسميع والتحميد والتأمين، رقم الحديث (410)

٢ سنن ابن ماجة، كتاب: إقامة الصلاة والسنّة فيها، باب: الجهر بالتأمين، رقم (856)


تفسير القرآن الكريم
(الفاتحة والبقرة)
تأليف
الدكتور فاروق السامرائي
رئيس الجامعة الإسلامية بولاية مينيسوتا
من منشورات الجامعة الإسلامية
بولاية مينيسوتا الأمريكية


بسم الله الرحمن الرحيم

الجزء الثاني

❁تفسير سورة البقرة ❁

سورة البقرة مدنية، وقيل هي أول سورة نزلت بالمدينة إذا استثنينا قول الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ (البقرة 281) فإنّها آخر آية نزلت في يوم النحر في حجة الوداع بمنى.

بعض الآثار الواردة في فضل سورة البقرة:

1- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (لا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ)[١]

2- عن أبي أمام الْبَاهِلِيُّ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لأَصْحَابِهِ، اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ وَلا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ)[٢] (أي: السّحرة).

---

١ مسلم، كتاب:صلاة المسافرين وقصرها، باب:استحباب صلاة النافلة في بيته (780)

٢ مسلم، كتاب:صلاة المسافر وقصرها، باب: فضل قراءة القرآن وسورة البقرة رقم (804)

3- عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: بَيْنَمَا جِبْرِيلُ قَاعِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ سَمِعَ نَقِيضًا (صوتاً كصوت الباب إذا فُتح) مِنْ فَوْقِهِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ الْيَوْمَ لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلا الْيَوْمَ فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ فَقَالَ هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الأَرْضِ لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلاّ الْيَوْمَ فَسَلَّمَ وَقَالَ أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ فَاتِحَةُ الْكِتَابِ وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلاّ أُعْطِيتَهُ)[1]

4- كان أُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ ﷺ يَقْرَأُ مِنَ اللَّيْلِ سُورَةَ الْبَقَرَةِ وَفَرَسُهُ مَرْبُوطَةٌ عِنْدَهُ إِذْ جَالَتِ الْفَرَسُ فَسَكَتَ فَسَكَتَتْ فَقَرَأَ فَجَالَتِ الْفَرَسُ فَسَكَتَ وَسَكَتَتِ الْفَرَسُ ثُمَّ قَرَأَ فَجَالَتِ الْفَرَسُ فَانْصَرَفَ وَكَانَ ابْنُهُ يَحْيَى قَرِيبًا مِنْهَا فَأَشْفَقَ أَنْ تُصِيبَهُ فَلَمَّا اجْتَرَّهُ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ حَتَّى مَا يَرَاهَا فَلَمَّا أَصْبَحَ حَدَّثَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ اقْرَأْ يَا ابْنَ حُضَيْرٍ اقْرَأْ يَا ابْنَ حُضَيْرٍ قَالَ فَأَشْفَقْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْ تَطَأَ يَحْيَى وَكَانَ مِنْهَا قَرِيبًا فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَانْصَرَفْتُ إِلَيْهِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي إِلَى السَّمَاءِ فَإِذَا مِثْلُ الظُّلَّةِ فِيهَا أَمْثَالُ الْمَصَابِيحِ فَخَرَجَتْ حَتَّى لا أَرَاهَا قَالَ وَتَدْرِي مَا ذَاكَ قَالَ لا قَالَ تِلْكَ الْمَلائِكَةُ دَنَتْ لِصَوْتِكَ وَلَوْ قَرَأْتَ لأَصْبَحَتْ يَنْظُرُ النَّاسُ إِلَيْهَا لا تَتَوَارَى مِنْهُمْ.[2]

---

١ مسلم: كتاب صلاة المسافرين, باب: فضل الفاتحة وخواتيم البقرة ، رقم (806)
٢ البخاري،كتاب فضائل القرآن، بَاب:نُزُولِ السَّكِينَةِ وَالْمَلائِكَةِ عِنْدَ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، حديث الباب.

(تفسير سورة البقرة)

﴿ الم ﴾ (1)

آية مستقلّة، حروفها متقطعة، ابتدأت بها سورة البقرة، وهي مثل مثيلاتها في بداية بعض سور القرآن الكريم، كلّ حرف له دلالة لا يعلمها إلاّ الله، ولم يُطلع عليها أحداً من عباده، ليمتحن بها إيمانهم بما له علاقة بعالم الغيب. أمّا ما ذهب إليه بعض المفسرين من التوسّع في ذكر معانيها، فقد لا تلزم الحاجة إليه خصوصاً وأنّ المبنى اللغوي لها غير ظاهر، ناهيك عن زيادة الاحتمالات وكثرة التأويلات.

ولا يجوز الاعتقاد بعدم جدواها، فما من شيء في كتاب الله تعالى إلاّ وله حكمة من ذكره، ولا مجال للاستغناء عنه، فعجز النّاس عن إدراك الشيء لا ينفي وجوده. فعن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ ﷺ قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا لا أَقُولُ ﴿ألم﴾ حَرْفٌ وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلامٌ حَرْفٌ وَمِيمٌ حَرْفٌ)[1].

وفي الحديث دلالة على منزلة كلّ حرف في كتاب الله. وقد تكون هذه الحروف للتنبيه على أمر آت أراد الحقّ سبحانه أن يلفت انتباه القارئ إليه

---

[1] سنن الترمذي، فضائل القرآن، باب: ما جاء فيمن قرأ حرفاً من القرآن .. ، ج 5/ص17

لأهميّته. ولا نتكلّف بالبحث عن دلالات الحروف المتقطعة، لكي لا ننزلق في هوّة الدلالات المستترة، غير المصرّح بها، والأصل فيها أنّنا نتعبّد الله بتلاوتها.

أمّا من حيث الهدف من وجودها فلعلّها سيقت لغايات أذكر منها عدّة:

1- لتحدّي أهل الصناعة اللغويّة، فقد أعجزهم الباري عز وجل عن الإتيان بمثل هذا القرآن، وهم يملكون ذات الحروف التي منها كلامهم، ليكون عجزهم أبلغ في الحجة عليهم.

2- لتنبيّه السامع وإنصاته لما بعدها من ذكر، وتهيئة المتعلّم للتلقي، فحينما يتوقّف عندها القارئ دون أن يجد لها دلالة معنى، يكون في شوق أكبر لما يأتي بعدها من الكلمات المتصلة بمعانيها ودلالاتها.

3- لتعزيز الاحترام المطلق بكلام الله، سواء أدرك المخاطَب معناه أم لم يدركه، فلكلّ حرف أو كلمة أو جملة نطق بها الحقّ سبحانه, ينبغي أن لا يغيب صداها الإيماني عن الكيان والمشاعر والأحاسيس، فكونها من كلام الله لها من القدسيّة مالا يقلّ عن قدسيّة الإيمان به جلّ وعلا. ومن هنا يلزم المؤمن كمال الأدب مع كلام الله, وكبير الاحترام، وعظيم التبجيل لكلّ ما يصدر عنه, سواء كان للعقل فيه نصيب من الفهم أم لا. فدائرة الإيمان لا

تنتهي عند حدود مدارك العقل البشري، فهناك كثير من عناصر الإيمان هي من الأمور الغيبيّة، والإيمان بها فرض لا خلاف فيه.

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ (2)

إشارة إلى القرآن الكريم الجامع لمنهج الله، الذي يحوي الهداية ويختصّ بها، وجاء نفي الشكّ والريب عنه بشهادة الله للتوكيد المطلق. وقد حفظه الله من التحريف أو التبديل منذ لحظة نزوله إلى قيام الساعة، فلا سبيل للشكّ في مصدره، أو الريب في أحكامه ودلالته، وكما نعلم أنّ التحريف والتبديل الذي شاب الكتب السماوية من قبله، أبطلها من أن تمثّل المنهج الإلهي، فجاء الكتاب الذي لم يصل إليه التحريف ولا التبديل، ليبقى منهجاً ربّانيّاً للبشر، إلى أن تقوم الساعة.

والهداية هنا تعني: البيان والدلالة والتوجيه والإرشاد. وتخصيص المتقين بها مع إمكان أن تكون لغيرهم، هو من قبيل الإكرام والتشريف لأهل الطاعة والخشية.

وقد خصّ الله المتقين بهدايته لاستحقاقهم ذلك، بسبب تقواهم لله وخشيتهم منه سبحانه، وهم أدعى من غيرهم للتصديق به، وقبول أحكامه.

والمعني بالهدى هنا، هداية الدلالة والبيان، وأساسها القرآن الكريم، وهو الكفيل بذلك.

والمراد بالتقوى في قوله تعالى ﴿هدى للمتقين﴾ أن يتقي المؤمن عذاب الله بصالح الأعمال، ليكون حجاباً وحاجزاً بينه وبين العذاب. وفي بيان معناها قيل أنّ عمر بن الخطاب ﷺ سأل أبي بن كعب عن التقوى فقال له: أما سلكت طريقا ذا شوك؟ قال بلى قال: فما عملت؟ قال شمرت واجتهدت قال فذلك التقوى.[١]

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (3)

يتضمن مطلع سورة البقرة الحديث عن صفات المؤمنين في آيتين، وعن الكفار في أربع آيات، وعن المنافقين في ثلاث عشرة آية.
ومناسبة ذكر صفة الإيمان بعد التقوى للعلاقة الكبيرة بينهما، فالتقوى تحرر القلب من أدران الشكّ، ليجد الإيمان بالله قاعدة متينة يرتكز إليها، ويستقرّ في القلب بوجودها.

---

١ أنظر: ابن كثير ، تفسير الآية.

وفي هذه الآية بيان لأهمّ صفات المتقين، وأولى هذه الصفات: الإيمان بالغيب، والغيب هو كل ما غاب عمّا تدركه الحواس، ولا يمكن أن يصل إليه أحد مهما بلغ من المنزلة أو المعرفة، إلاّ بوحي من عند الله، فيكون هذا معجزة لهم ولمن اتبعوهم، وقد ذكر لنا الحقّ شواهد في القرآن الكريم تؤكد عجز مخلوقات الله عن إدراك كنه الغيبيات، ومن بينها:

أ - بالنسبة لعجز عموم النّاس عن معرفة الغيب قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ (آل عمران 179) وقال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ (الأنعام 59)

ب - حتّى الأنبياء لا يعلمون الغيب، وقد خاطب الحقّ سيدهم محمد ﷺ بقوله: ﴿قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف 188)

ت - عن عجز عالم الجنّ عن معرفة الغيب يخبر الحقّ تبارك وتعالى عنهم بقوله: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ (سبأ 14)

ث ـ والملائكة لايعلمون الغيب، ولو كانوا من المقربين، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آَدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (البقرة 31- 32)

فالله وحده المتخصص بعلم الغيب، والعالم بخفاياه. ومادام الحقّ سبحانه قد أخبرنا عن عالم الغيب، فنحن نؤمن به وبوجوده، لإيماننا بصدق المُخبِر، فالتصديق متعلق بالمُخبِر لا بنوع الخبر، وعجز البشر عن مشاهدة الشيء أو إدراك كنهه لا ينفي وجوده، فالله قد وهبنا الروح التي تحرّك فينا الحياة، وهي من أمر الله لا نعرف عن ماهيتها شيئا، سوى علمنا بأنّها أساس تحريك الحياة فينا، لكن ليس لشكلها أو طعمها أو رائحتها وجود، والأمر بالنسبة لنا عالم غيبي، لكننا نعايش أثرها في حياتنا، قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلا﴾ (الإسراء 85) فإذا عجزنا عن إدراك كنه الروح في أجسادنا، وهي خلق من خلق الله، فكيف يمكن لنا أن ندرك الخالق بحواسّنا، فهذا أمر محال.

ومن هنا فإنّ الموقف اللائق بالمؤمن يتضمنه الخطاب الرباني: ﴿آَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ

وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرِ ﴾ (البقرة 285)

ولا فرق عند المؤمن، سواء تعزز الإيمان بالمشاهدة أم بالإعلام دون المشاهدة، لأنّ الثقة المطلقة بالله لا تدع ريبا في القلب فيما أخبر من الغيبيات، فقد عَلِمنا عن صفات الملائكة وعالم الجنّ، وعن بعض ما في الجنّة والنّار والحساب والحشر وغير ذلك ممّا تضمنه عالم الغيب عن طريق نصوص الوحي الإلهي. والذي يؤمن بالغيبيات يحقق مبدأ شموليّة الفكر والاعتقاد.

ومن صفات المتقين أنّهم ﴿ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ فيُتبِعون الإيمان، العمل بمقتضاه, لأنّ من متطلبات وجوده ، الأداء الأمثل لمطالب الشارع، لذلك كَتَبَ عُمَرُ بْنُ عبد العزيز إِلَى عَدِيِّ بْنِ عَدِيٍّ قال له: (إِنَّ لِلإِيمَانِ فَرَائِضَ وَشَرَائِعَ وَحُدُودًا وَسُنَنًا فَمَنِ اسْتَكْمَلَهَا اسْتَكْمَلَ الإِيمَانَ وَمَنْ لَمْ يَسْتَكْمِلْهَا لَمْ يَسْتَكْمِلِ الإِيمَانَ فَإِنْ أَعِشْ فَسَأُبَيِّنُهَا لَكُمْ حَتَّى تَعْمَلُوا بِهَا وَإِنْ أَمُتْ فمَا أَنَا عَلَى صُحْبَتِكُمْ بِحَرِيصٍ)[١] كما ذهب العلماء إلى أنّ الإيمان يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي.

---

١ صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب حديث النبي ﷺ بني الإسلام على خمس (مقدمة الباب)

والمراد بإقامة الصلاة: أن تُؤدّى بشروطها وواجباتها وأركانها. ولفظ الإقامة هنا أبلغ من لفظ الأداء، حيث أمكن من يُقيم الصلاة أن يُقيم الدين والمنهج، فالصلاة هي العهد الذي به يقوم الدين ، قال رسول الله ﷺ: (الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلاةُ فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ) [١] وقال ﷺ: (إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عَمَلِهِ صَلاتُهُ فَإِنْ صَلُحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ) [٢].

والصفة الثالثة للمتقين الإنفاق في سبيل الله، والمراد بالإنفاق إخراج زكاة المال المفروضه، ولا يمنع أن يشمل المعنى جميع أوجه الإنفاق من فرض وتطوع، فالزيادة على المفروض يدخل في باب الإحسان. فكما أعطانا الحقّ برحمته وكرمه، جدير بنا أن ننفق من ذلك في أبواب الخير المتنوعة، لكي تكون حياة النّاس في ظلّ الإنفاق متساندة متعاضدة، تسودها الرحمة، وتغشاها المودة.

وكثيرا ما يجمع الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم بين الصلاة والزكاة، لأنّ الصلاة سبيل الإخلاص للمعبود، والزكاة سبيل الإحسان

---

١ جامع الترمذي، كتاب الإيمان (2621)؛ وسنن النسائي, كتاب الصلاة (463).
٢ جامع الترمذي، كتاب الصلاة (413)

للعبيد، وسعادة المؤمن في أن يتفيأ ظلالهما ليعيش أنس الحياة بين الإخلاص والإحسان.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ (4)

وهذه هي الصفة الرابعة للمتقين المشار إليهم، الإيمان بمطلق التنزيل، وأنّه من عند الله، سواء ما نزل على رسول الله ﷺ من القرآن الكريم ، أو ما نزل على إخوانه الأنبياء الذين سبقوه، من الكتب السابقة، لأنّ الأصل في الإيمان مرتبط بالمُنزِل وهو الله، بغضّ النظر عن نوع التنزيل، أو زمنه، فإذا تنوع التنزيل، يبقى المُنزِل واحد لا يتغيّر، ولا يتبدّل، وهو الله جلّ في علاه ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاّ اللَّهُ، وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آَمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاّ أُولُو الأَلْبَابِ﴾ (آل عمران 7)

وينبغي التنبيه هنا إلى أنّ الإيمان بما أنزل على الرسل قبل محمد ﷺ يخصّ أصولها كما نزلت من عند الله قبل أن يطرأ عليها التحريف

والتبديل، وليس الإيمان بما في أيدي أهل الكتاب. قال رسول الله ﷺ : (لا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلا تُكَذِّبُوهُمْ وَ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ ..)[١].

وكذلك يلزم التفريق بين الإيمان بالكتب السماويّة السابقة، وبين العمل بأحكامها، حيث لا يصحّ العمل بأحكامها إلاّ ما وافق منها أحكام الدين الإسلامي، وحتّى إذا وافق ذلك فإنّ منشأ الحكم الشرعي هو ما ورد عن النبي ﷺ وأقرّه، فيكون العمل بأحكام الدين مظلته رسالة محمد ﷺ وليس رسالات من سبقه.

والصفة الخامسة للمتقين هي: الإيمان باليوم الآخر، والتصديق بما اخبر الحقّ سبحانه وتعالى عن أحداثه، واليقين بوعد الله فيه، وهو أحد أركان الإيمان، والباعث على الرغبة والرهبة والعمل الصالح.

﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (5)

إشارة إلى الموصوفين بالصفات التي يبينها الله سبحانه وتعالى في الآيتين السابقتين، وهؤلاء قد تحققت لهم الهداية من ربّهم، فمنحهم سبيله الموصل إلى الحقّ، وسلك بهم طريق الفوز والنجاة ، و (على) تفيد العلو، فهم قد استعلوا بإيمانهم، وارتقوا بهداية الحقّ لهم، وفازوا

---

١ صحيح البخاري، كتاب الشهادات، باب: لا يُسأل أهل الشرك عن الشهادات (حديث الباب)

بالفلاح، سواء في الدنيا حين نالوا عزّة الإيمان، وكرامة اليقين، أو في الآخرة بما أعدّ الله لهم من الثواب والنعيم المقيم، وهؤلاء على خلاف أهل الضلالة الذي انحرفوا عن طريق الحقّ فانغمسوا في مستنقعها، وغُيّبوا في ظلماتها، ولهذا فإنّ الحقّ سبحانه وتعالى حينما ذكر الهدى أتى بـ (على) وحينما ذكر الضلال أتى بـ (في) للتميز بين الهيئتين والحالتين، قال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ (سبأ 24) لأن صاحب الهدى يعلوا بهداية الله له، وصاحب الضلال يبقى في عالمها السفلي، تحيط به المهالك من كلّ صوب.

وجاء ذكر الهداية مع الفلاح للتوكيد على ارتباط المقدمات بنتائجها، فهناك مقدمة ونتيجة، الهداية والفلاح، وبينهما منهج التكليف.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (6)

هذه الآية على الراجح أنّها نزلت في حقّ اليهود الذين كانوا بنواحي المدينة على عهد رسول الله ﷺ وذلك توبيخا لهم بسبب جحودهم نبوة محمد ﷺ وتكذيبهم بها، مع علمهم ومعرفتهم بأنه رسول الله ﷺ إليهم وإلى الناس كافة. ولا يمنع أن يشمل الخطاب القرآني كلّ كافر معاند مكابر.

وبعد أن ذكر الحقّ سبحانه صفات أهل الإيمان والتقوى، وفلاحهم في الآخرة، جاء الحديث هنا عن أهل الكفر والجحود، لتمضي سنّة الله في الحياة في حتميّة وجود الخير والشر، وفي استمرار الصراع بين الحقّ والباطل، وأنّ العالم لا يمكن أن يعيش بقطب واحد، وحيثما يوجد الشيء لابدّ وأن يوجد ضدّه.

والكافر هو الذي غطّى وحجب وغيّب الإيمان عن حياته، وستر وجود الله جل جلاله، ليحول دون الإيمان به سبحانه، والخضوع لعظمته.

وهم - أي الكفّار- على نوعين:

الأول: كفرَ بالله لجهله ولغياب دواعي الإيمان عن حياته، فلمّا جاءته الهداية من ربّه، حكّم عقله، بعيدا عن الهوى والشيطان، فآمن بالله، وطابت نفسه بذلك.

الثاني: معاند مكابر، إلهه هواه، مستفيد من كفره، وهذا الصنف هو الذي عناه الحقّ سبحانه وتعالى في هذه الآية، وهم أهل السوائية ﴿سواء عليهم﴾ فكفرهم لم يكن سببه الجهل، أو أنّ حجج الإيمان لم تبلغهم، بل استحبّوه ليكون لهم منهج حياة، فمصالحهم وسيادتهم مرتبطة بذلك، وهي بالنسبة لهم غاية لا بديل عنها، ومقصد لا مناص منه.

إنّه لأمر كبير على أنفسهم أن يكونوا كعامّة النّاس سواسية، إذا هم دخلوا في دائرة الإيمان، تجارة بالنسبة لهم غير رابحة، هؤلاء سواء عليهم أنذرتهم أو لم تنذرهم فإنهم لا يؤمنون، لأنّ القضيّة بالنسبة لهم محسومة بداية.

فيا محمد لا تقلق، ولا تيئس، ولا تحزن، فهناك من النّاس من يستجيب لك، ومن يؤمن برسالتك، ممّن شرح الله صدره للإيمان، أمّا هؤلاء فقد سبق عليهم القول ﴿فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (فاطر 8)

وفي هذه الآية توجيه من الباري سبحانه وتعالى لنبيّه الكريم ﷺ ومن ثمّ أمّته، إلى ربط النتائج بمقدماتها، ومظاهر الأشياء بأسباب وجودها, كي تتجه الجهود نحو إيجاد المحصلات اللصيقة بمصلحة الجماعة المؤمنة، بعيداً عن الانشغال بأمور قد حُسمت نتائجها مسبقاً من قِبَلِ الحقّ سبحانه، وفقاً لمقتضى سنن الله في تقرير الأحكام المرتبطة بأسبابها، لذلك ينبغي تفعيل مبدأ ﴿سواء عليهم﴾ في ميدان العمل الإسلامي، خصوصاً عندما يكون التعامل مع صنف من النّاس يحملون ذات السمات والصفات التي عناها الحقّ سبحانه وتعالى في الخطاب, كي لا تتعثّر مسيرة الدعوة إلى الله بسبب ضياع الجهد

والوقت. لذلك يجب أن يخضع المجتمع المسلم لهذا المبدأ خصوصاً في مرحلة الانتقاء والاختيار، كي نحض بالعناصر القادرة على التفاعل والعطاء ليكون العمل معها أقرب إلى تحقيق مصالح الأمّة.

﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (7)

والختم هنا هو الطبع كما في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآَخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (النحل 107، 108) وقد حكم الحقّ سبحانه على الكافرين بألاّ يخرج من القلب ما فيه من الكفر، ولا يدخل إليه الإيمان، والحكم هنا يخصّ الذين استغنوا عن الإيمان بعد إقامة الحجج الموجبة له، وأصرّوا على اختيارهم الكفر بالله بعد ذلك.

وفي هذا الختم عقاب للكافرين، ومجازاة لكفرهم، قال تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ وقال رسول الله ﷺ:(تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ

الصَّفَا فَلا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَالآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا لا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلاّ مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ)[1]

وهذا من عدل الله، فهؤلاء الصنف من النّاس هم الذين اختاروا الكفر أولا قبل أن يختم الله على قلوبهم، وهم الذين حجبوا الإيمان عن قلوبهم، قبل أن يحجبه الله عنها، فمنعه عنهم بعد ذلك لعدم استحقاقهم له، والله أغنى الشركاء عن الشرك. قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لا يُبْصِرُونَ، إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (يونس 43،44) وقال الحقّ سبحانه: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (التوبة 70) وقال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (فصلت 46)

﴿ولهم عذاب عظيم﴾ ليتناسب مع عظم الجرم الذي اقترفوه بسبب كفرهم وجحودهم. فللذنوب إذا تزاحمت على القلوب أقفلتها.

---

[1] مسلم،كتاب: الإيمان، باب: بيان أنّ الإسلام بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريبا، رقم (144).

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (8)

النّفاق مطلقاً هو: إظهار أمر ظاهره الخير، وإسرار أمر آخر حقيقته الشرّ، والمنافق هو الذي يدّعي شيئا ويفعل خلافه، فتتباين سريرته مع علانيّته، وظاهره مع باطنه. والذين عناهم القرآن الكريم هم الذين يُظهرون الإيمان ويكتمون الكفر والضلال. والنّفاق الاعتقادي يُعدّ من أكبر المهلكات، وصاحبه في الدرك الأسفل من النّار والعياذ بالله، أمّا إذا عمل المسلم بصفات المنافقين فمعصيته تُعدّ من الذنوب الكبيرة.

ولهذه الآية والتي تليها (الآيات من 8-20) دلالة على وجود ظاهرة النّفاق، التي بدت معالمها في العهد المدني, أي بعد هجرة النّبيّ ﷺ إلى المدينة المنورة، وإقامة دولة الإسلام فيها، حيث لم تكن الحاجة إليه في العهد المكي، بسبب هيمنة المشركين والكفّار على زمام الأمور, بل إنّ بعض المسلمين كان يكتم إيمانه خوفاً من بطش قريش. أمّا في المدينة المنورة، وبعد الهجرة، قامت دولة الإسلام بقيادة الرسول ﷺ ، ثمّ قويت شوكتها، وزادت هيمنة المسلمين على زمام الأمور فيها، عند ذلك بدت حاجة أهل الشرّ وضعاف النّفوس إلى ارتداء ثوب النّفاق، لتمرير كيدهم وخداعهم، ومن هؤلاء عبد الله بن أبي بن سلول، رأس النفاق وسيّد

المنافقين، ومعه طوائف ممن هم على طريقته وملّته، وآخرون من أهل الكتاب، ثم وجد النفاق سبيله إلى بعض ضعاف النفوس من أهل المدينة ومن حولها من الأعراب. لكنّ هذه الظاهرة لم تكن في فئة المهاجرين، حيث تركوا أموالهم وأولادهم وأرضهم وهاجروا لنصرة دين الله، ورغبة فيما عند الله من الثواب.

وبما أنّ المنافقين أدعياء في دائرة الإيمان، وليسوا أصلاء في ميدان الاعتقاد، فقد انتفت عنهم صفة الإيمان, لأنّ الإيمان بالله ليس شعارا أو إعلانا يصطاد به المغرضون مشاعر وعواطف الجهلاء, وإنّما هو حقيقةٍ كائنة متواجدة, مقرّها القلب، وميدانها العمل.

﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إلاّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (9)

يعتقد المنافقون أنّهم بنفاقهم وكيدهم ومكرهم، يخادعون الله والذين آمنوا، وهذا محال، لأنّ الله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور, ويعلم ما تكنّ صدورهم وما يُعلنون، أمّا المؤمنون فهم في مظلة الولاية الربانيّة ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ (البقره 257) فلا يقعوا في شباك خداعهم، خصوصاً وأنّ الحقّ سبحانه وتعالى

نوّر قلوبهم وأبصارهم. والخداع الذي قصده المنافقون لتحقيق مآربهم لا محالة سيرتدّ عليهم ﴿ وَمَا يَخْدَعُونَ إلاّ أَنْفُسَهُم﴾ دون أن يشعروا بذلك لجهلهم وحماقتهم بحقيقة الأمور، فالجزاء الواقع عليهم من جنس فعلهم، خداع بخداع ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ (النساء 142) ومكر بمكر ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِين﴾ (الأنفال 30) وكيد بكيد ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا، وَأَكِيدُ كَيْدًا، فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ (الطارق 17) كلّ ذلك من أجل قضيّة يجهلها أهل الباطل ممّن لا يفقهون سنن الله في عباده المؤمنين، وهي ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُور﴾ (الحج 38)

﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ (10)

ليس المرض هنا في القلب المادي، وإنّما هو مرض الاعتقاد، وما خيّم على قلوبهم من شك وريب في أمر محمّد ﷺ وبالذي أُنزل إليه. فعندما تمادى أهل النّفاق في غيّهم وشكّهم دون تراجع أو اعتراف بالذنب، زادهم الله شكّاً وريباً للحيلولة دون نيل كرامة المؤمنين من أهل اليقين، لأنّ الهداية إلى طريق الحقّ فيها تكريم لأصحابها، وشاء الله أن

يحرم المنافقين هذا الخير بسبب مكرهم وخداعهم, ليكونوا من المستحقين للعذاب والعقاب الأليم.

وقد يكون المرض هو الرجس الذي ورد في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ, وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (التوبة 125،124) ليزيدهم شرًا إلى شرهم، وضلالة إلى ضلالتهم، فالجزاء من جنس العمل، وهو نظير قوله تعالى أيضًا: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ (محمد 17).

لقد أتعب النفاق صاحبه، وأرهقه الاضطراب، فلم ينل قدراً من الشفاء المخصص لأهل الإيمان ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَارا﴾ (الإسراء 82) وهذا المرض يزداد في قلوبهم مع الزمن، والله سبحانه وتعالى يزيدهم مرضا بسبب نفاقهم وكفرهم.

وصاحب القلب المريض ضعيف لا يقوى على شيء من فعل الخير، فهو رعديد في المواجهة، جبان عن اللقاء، ولهذا عندما يكون في صفوف المؤمنين في المعركة، يسارع في الهروب من ميدان الثبات، وتجمّع الرجال، ليجد مخبأ يختفي فيه، فجاء الوصف القرآني معبّرا عن

حقيقتهم، يقول الحقّ سبحانه: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَئاً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ (التوبة 57)

وهؤلاء ينالهم العذاب الدنيوي الناجم عن مرض قلوبهم، وفي الآخرة عذاب أليم، بسبب كذبهم وخداعهم، وهذا العذاب أشدّ وأبقى ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ (النساء 145)

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ (11)

فالمنافق بنفاقه مفسد في الأرض، بما أظهر من الإيمان بخلاف ما أبطن، فأضلّ بذلك عن معرفة حقيقته، ولو أظهر ما أبطن لعُلِم التعامل معه. كان ادّعاؤهم: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ وهو ادّعاء عار عن الحقيقة، وشهادة باطلة، فكيف يُتصور أن تكون الرذيلة والمعصية والغدر ومحاربة دين الله من الأعمال الصالحة؟ تلك مفارقة في ميزان القيم، وإخلال بمصداقيّة الحكم!

وهذا الادعاء يدلّ على أنّ منشأ الأحكام خارج دائرة الإيمان إنّما هي أضحوكة، فقد يعلم الجاهل بحقيقة الحكم لكنّه يأبى أن يكشف عنه، أو أنّه

يجهل حيثيات الحكم بسبب فقدانه معرفة معاني الخير ومعاني الشرّ، فتكون النتيجة، انقلاب الموازين، وانفلات القيم، وطمس الحقائق.

كم أسمع أهلُ الباطل أصحابَ الحقّ عبارة: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُون﴾ حتى باتت مظلة للغدر والخيانة، وكم شاهد النّاس ذئاباً يلبسون جلد الحَمَلِ الوديع، ليخفون غدرهم وخيانتهم! وكم عانى العباد من آثار المنافقين المتسلقين، المتسللين في الخفاء، الذين يغرّرون النّاس بمظاهرهم الخادعة، فيضمرون في داخلهم سمّ الأفعى ليدسّوه في أجساد الأبرياء كلّما شعروا باهتزاز مصالحهم!

ليس منّا من يُنكر بأنّ الأمّة باتت فريسة الغدر والنفاق، ساد فيها المفسدون، وقلّ في ميدانها المصلحون، زاد فيها ظلم الظالمين وذلّ المظلومين، كما ازداد فيها غنى الأغنياء وفقر الفقراء.

﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُون﴾ أصبحت شعار من لا يملك من الإصلاح ذرّة خردل، يتكرّر كلّما وجد المنافقون لهم موطئ قدم، لتنطلق خطاهم نحو الإفساد في الأرض، وتغيير معالم الحقّ، وتضليل جموع الخلق.

هم مصلحون حسب ادعائهم، لكنّهم مفسدون من حيث الحقيقة والواقع. لانّ تقرير ماهيّة المعروف والمنكر، والصلاح والفساد، والخير

والشر، لا يملكه إلاّ الحقّ سبحانه، لذلك يلزمنا ضبط دلالة المصطلحات وفق المعاني التي قصدها الشارع، كي لا تُغلّب التفسيرات البعيدة عن دلالات وحي الله، أو تُرجّح وجهة المقاصد بباعث الهوى والمزاجيّة، فتتعطّل مصالح العباد. ومن هنا يلزم المؤمن التنبّه والتحوّط ممّا يطلقه أهل الباطل من دعاوى وأحكام لتضليل العامّة، وصرف الحقائق عن أصلها. فلهم ما يقولون، وعليهم وزر ما يفعلون.

﴿أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ [12]

للتوكيد على بطلان دعواهم، وعلى حماقتهم وجهلهم بسبب عدم شعورهم، فلا يظنّ المؤمن أنّ دعواهم ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ حقيقة، إنّما هي مظهر من مظاهر الكذب والخديعة، يصطادون بها غفلة النّاس، أمّا حقيقتهم فإنّهم مفسدون في الأرض، وواقع أمرهم الكفر والنفاق. وبسبب المرض في قلوب هؤلاء فإنّهم لا ينتفعون بنصيحة النّاصحين، وتوجيه المصلحين.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (13)

إذا قيل لهم أو طلب منهم أن يؤمنوا إيماناً صادقاً مخلصاً كما آمن الصحابة ﷺ قالوا: أنؤمن كما آمن السفهاء. والحقيقة هم السفهاء لجهلهم بحقيقة الإيمان وقلّة معرفتهم بمستلزماته، وبالتالي لا يعلمون أنّهم سفهاء، ولا يشعرون بفسادهم وإفسادهم.

إنّ استمرار أهل الباطل في باطلهم، وتعاظم شأنهم في الأرض، لا يُغيّر من حقيقته، وبالتالي على أصحاب الحقّ أن لا يغيّروا من دوافع إنكاره، ومن أسباب مواجهته. فالمنافقون أصحاب شخصيّة قلقة مهزوزة، حكمهم على غيرهم لم ينشأ عن معرفتهم بحيثيات الحكم، بل أساسه الجهل والسّفه والغرور. فإذا كان الصحابة الكرام ﷺ سفهاء (حسب زعمهم) فمن هم العقلاء؟ إنّه واقع مضحك تمرّغ في مستنقعه الآسن شراذمة الخلق، أئمّة السفه والجهل والتخلّف، المنافقون من النّاس. فهم لا يعلمون بواقع أمرهم، ولا يعرفون حقيقة غيرهم.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ (14)

إشارة إلى مبدأ (التقية) عند المنافقين، فلأجل أن ينالوا اكبر قدر ممكن من تحقيق مآربهم، كانوا إذا التقوا بالمؤمنين أظهروا لهم الإيمان المصطنع، والموالاة الخادعة، ليكون إيمانهم المزعوم ستارا يُخفون وراءه الكفر والمكر والخديعة، ولينالوا حقوق الإيمان بظاهر الانتماء إلى أهله.

أمّا إذا انصرفوا عن أهل الإيمان وخلوا إلى شياطينهم من الإنس (سادتهم وكبراؤهم من المنافقين وأحبار اليهود ورؤساء المشركين) أو خلوا إلى شياطينهم من الجنّ ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ (الأنعام 112) . قالوا (إنّا معكم) لتوكيد الولاء والانتماء الحقيقي لهم، وإنّ ما أظهروه من معالم الإيمان إنّما هو من قبيل المكر والسخريّة والاستهزاء بأصحاب رسول الله ﷺ.

ولعلّ من بين الدلالات في قوله تعالى ﴿إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنّا﴾ أنّ لفظ اللقيا أفاد اللقاء العارض، القصير في وقته، المتكلّف في صورته وهيئته، الذي لم ينشأ عن ميل ومحبّة، بل رغبة في الخديعة والمكر والتضليل. أمّا ﴿إِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ

مُسْتَهْزِئُونَ﴾ فقد أفاد حصول اللقاء، ودلّ حصول الخلوة على لقاء الحبيب بالمحبوب في ظلّ الخفاء، ممّا يؤكد حقيقة انتمائهم لشياطينهم، والتواجد بين أخلاّئهم وأحبابهم، بوقت طويل، وجهد متواصل، لتلتقي بينهم الغايات والمقاصد، وتتعاظم في جمعهم رغبة الانتقام من الحقّ وأهله.

﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (15)

فيها تقرير لنوع الجزاء الوفاق لمن استهزأ بالله وبدينه وبعباده المؤمنين, ليكون الجزاء من جنس العمل. فالمؤمن يحكم بظاهر الأمر، والله وحده الذي ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُور﴾ (غافر 19). وبما أن أفعال المنافقين غير واضحة المعالم، فإنّه من الصعب التحوّط لكيدهم ومكرهم، فقد تقع الجماعة المؤمنة في شراك هذا الكيد والمكر، حيث يتعذّر التخطيط الوقائي المسبق لذلك. ومن هنا كانت لمعيّة الله للمؤمنين أثرها العظيم في إبطال كيد المنافقين ومكرهم، فهو سبحانه المدافع عن الذين آمنوا، ومن صور الدفاع عنهم، الاستهزاء بأعدائهم ومدّهم في طغيانهم يعمهون، لتكون العاقبة للمتقين.

﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ أي يُجازيهم بسبب استهزائهم، ليكون العقاب من جنس العمل.وقد يكون من صور الاستهزاء بهم، ما يقع عليهم من عقاب وجزاء يوم القيامة. قال تعالى:﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا

انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ (الحديد 13).

﴿ويمدّهم﴾ أي يُملي لهم, ويُمهلهم. قال تعالى:﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ، نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لا يَشْعُرُونَ﴾ (المؤمنون 55, 56) ومعنى ﴿في طغيانهم يعمهون﴾ أي في كفرهم وضلالهم يترددون. والطغيان في اللغة هو مجاوزة الحدّ، فالكافر متجاوز للحدّ بكفره وضلاله. وقد يكون في معنى ﴿يعمهون﴾ إشارة إلى العمى الذي يُصيب القلب من كثرة الرّان، وتعاظم غشاوة الكفر, قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾.(الحج 46)

وهذه الآية تعزز مبدأ (المدافعة) مدافعة الله عن عباده المؤمنين ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (الحج 38)، لتمضي دعوة الله بلا توقّف، ومن دون اكتراث بما يفعله المعوقون والمرجفون، لأنّ الله سبحانه سيتولى معالجة المخاطر التي تعجز عنها الجماعة المؤمنة ضمن إمكاناتها البشريّة، ليكون العمل لنصرة دين الله أكثر عزما، فليس هناك من أمر مستحيل في ظلال معيّة الله تعالى للفئة المؤمنة، فلا تدفعنا صعوبة الواقع إلى تقزيم الأهداف، وزعزعة الثوابت، وتردي الذات.

إنّ المؤمن بحاجة ماسّة إلى دوام الإحساس بالفوقيّة الإيمانيّة ﴿وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران 139) التي تستغرق الزمان والمكان والحدث، ليكون التوكّل على الله منطلقا نحو التمكين، والصبر على تحمّل ثقل التكليف معززا لمسيرة العاملين من أجل نصرة دين الله ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ (آل عمران 120)

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ (16)

إشارة إلى المنافقين الذين ذكرهم الله في الآيات السابقة، الذين خسروا صفقة البيع هذه، لانتفاء الربح الحقيقي، فقد خسروا هداية الطريق، وهداية التوفيق، وفقدوا شرف الانتماء للجماعة المؤمنة، فضلّ سعيهم في الحياة الدنيا، وساء مآلهم يوم القيامة.

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ ﴾ (17)

المثل هنا للتشبيه، أي مثل المنافقين الذين اشتروا الضلالة بالهدى، كمثل الذي أوقد ناراً في ظلمة فلما أضاءت ما حوله، وانتفع واستأنس

بدفئها ونورها، أطفأها الله ليذهب بنورهم ويدعهم في ظلام شديد لا يُبصرون .

وضرب المثل في القرآن الكريم هو من الأساليب التربويّة الهامّة لإيقاظ ذهن السامع، وأيّاً كان نوع المثل في القرآن الكريم فإنّه لا محالة سيؤدى مقاصده التربويّة، ومهما كان نوع المخلوق الذي ضُرب به المثل، سواء من حيث جنسه أو حجمه أو شكله، فإنّه يُحقق الغاية التي سيق من أجلها، وذلك أبلغ في تحصيل العبرة والعظة، أو في تحقيق الترغيب والترهيب. فليس القصد في ذات الشيء الذي ضُرب به المثل فحسب، بل وفي الأمر الذي سيق لأجله، ليكون وجه الشبه بين المشبّه والمشبّه به مربطاً للمقصد.

ويدل تشبيه الإيمان والهداية بالنّور، وكذلك تشبيه الكفر والنّفاق بالظالمات، على أهميّة حافزي الترغيب والترهيب، فجميع البشر أصحاب العقول السليمة، يعشقون النّور، ويمقتون الظلام. يعشقون النّور الهادي إلى طريق الخير، والذي تشرق به الحياة الكريمة، ويمقتون الظلام الذي يجعلهم في عتمة لا يُبصرون.

ووجه الشبه في النّور هو للدلالة على الإيمان الذي أظهروه عند اعتناقهم الإسلام، ثمّ عوقبوا بالنّار التي أوقدوها، بعد أن ذهب نورها،

وبقي إحراقها وحرّها ودخّانها، وكذلك بفقدهم النّور من حولهم فهم في ظلمات لا يُبصرون.

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ ﴾ (18)

وهذا عقاب آخر، (صمّ) لا يسمعون الحقّ، (بكم) خرس لا ينطقونه، (عمي) لا يرونه، ثمّ هم لا يرجعون إلى الهداية التي باعوها بالكفر والنفاق.

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ (19)

تشبيه آخر، فالمشبَّه: هم المنافقون، والمشبّه به: مطر منزل من السحاب فيه ظلمات، للدلالة على عُتمة النّفاق التي زادت من خوفهم وشكّهم وريبهم وترددهم، والرعد هو صوت الحقّ الذي يدوّي أسماعهم فيرتعدوا خوفاً ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (المنافقون 4) والبرق لمعة نور الحقّ التي تتخلل ذلك الصيّب من السماء بين الحين والآخر لتخطف أبصارهم.

وبسبب ما يُعانوه من ألم سماع صوت الحقّ لكراهتهم له، فإنّهم يفعلون كالذي يجعل أصابعه في أذنه ليمنع أو يُخفف عن نفسه سماع صوت الرعد المدوّي لمحيطه. كما فعل قوم نوح عليه السلام حيث أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ (نوح 7)

﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (20)

تدلّ الآية على تأثّر المنافقين من شدّة نور الحقّ والإيمان، فبدل أن يكون لهم نور هداية نحو طريق الخير ليسلكوه، كاد أن يخطف أبصارهم، كلّما أضاء لهم، بسبب تواجدهم بين ظهراني أهل الإيمان، مشوا فيه لعلّهم يدركون نوره، وإذا خيّمت عليهم غمامة الكفر والنّفاق، بسبب خلوتهم مع شياطينهم، ازدادوا ظلمة وحيرة ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير﴾ بسبب تركهم للحق بعد معرفته. فالله سبحانه وتعالى يحذّرهم من عاقبة فعلهم، فهو القادر على

عقابهم وإذهاب أسماعهم وأبصارهم في أيّ وقت شاء، لكن قد يؤخّر ذلك عنهم لحكمة يعلمها، أو ليجعل عذابهم الأوفى يوم القيامة.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (21)

المعنيون بالخطاب هنا على الراجح هم الكفّار، بدليل قوله تعالى: ﴿وإن كنتم في ريب..﴾ ولا يمنع أن يكون عامّاً لجميع النّاس بمن فيهم المؤمن والكافر، فبالنسبة للمؤمن أفاد التوكيد على دوام العبادة واستمرارها وعدم التقصير فيها، وأمّا للكافر ففيه دعوة إلى إقرار العبوديّة لله، ومن ثمّ إنشائها في حياته لأن يبدأ طريق الاتصال بخالقه سبحانه.

والمراد بالعبادة: الخضوع لعظمة الله القادر على الخلق والتكوين، ثمّ التذلل له بالطاعة، والانقياد لأمره ونهيه.

وتفيد كلمة (لعلّكم) حصول (التقوى) بعد تحقق شرطها (العبادة).

وتدلّ الإشارة في قوله تعالى: ﴿والذين من قبلكم﴾ على أنّه سبحانه الخالق لجميع الخلق، أولهم وآخرهم، وليس هناك من معبود بحقّ سواه، في القديم والحال والمستقبل، فهو الأول فلا شيء قبله، والآخر فلا شيء بعده، وهو المستحقّ للعبادة قديماً وحديثاً ومستقبلاً، دون شكّ

أو ريب، فلا يُصرف هذا الحقّ لغير الله، ولا يستحقّ العبادة غير القادر على إحداث الخلق في السابق، وتكراره في اللاحق.

وفي توجيه الخطاب لعموم النّاس ﴿يا أيها الناس﴾ يحقق مبدأ تكافؤ الفرص للجميع، سواء لمن أراد أن يصون العبادة ويديم استمرارها، أو لمن أراد أن يُحدثها في حياته، بعيدا عن حرج التخصيص الذي قد يؤدّي إلى تردد بعض النّاس. كما إن فتح باب العبادة لجميع النّاس يحقق مبدأ الشموليّة والعالميّة. وذكر صفة (الخلق) يمنح جميع النّاس فرصة الاتصال بالله تحت مظلّة العلاقة بين الخالق والمخلوق.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (22)

إضافة إلى كونه الخالق المنعم، المتفضّل على مخلوقاته بالإيجاد من العدم، فهو كذلك متفضل عليهم بديمومة الوجود إلى أجل مسمّى عنده. وبتيسيره ديمومة الحياة للنّاس بجعله الأرض فراشاً ليُمهّد لهم السكن فيها، وسبيل العيش عليها.

ودلّ بناء السماء، على قدرة الله المطلقة في إحكامها وضبطها، لتكون سقفاً لعباده، ومصدراً من مصادر الخير الذي أنعم به عليهم. فالماء المنزل من السماء فيه حياة للأرض، حيث جعله الله سبباً لإدامة العيش عليها والتنعم بخيراتها من الزرع والثمرات المختلفة.

﴿ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

فمن الظلم العظيم أن يجعل النّاس شركاء لله من خلقه، وهم يعلمون أنّه الخالق والمنعم والمتفضل على عباده. عنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود ﷺ قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ قَالَ: (أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ)[١]. فتوحيد الله حقّ لله على عباده . وعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَل ﷺ قَال: كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى حِمَارٍ .. فَقَالَ: يَا مُعَاذُ هَلْ تَدْرِي حَقَّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَحَقَّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لا يُعَذِّبَ مَنْ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلا أُبَشِّرُ بِهِ النَّاسَ قَالَ لا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا.[٢]

---

١ البخاري، كتاب تفسير القرآن (4477)؛ مسلم ، كتاب الإيمان (86).

٢ البخاري، كتاب الجهاد والسير (2856) ومسلم، كتاب الإيمان (30)

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (23)

بعد تقريره حقّ الله على النّاس كافّة، يوجّه الباري عزّ وجل الخطاب للكافرين المعاندين لرسول الله ﷺ لإقرار نبوته ورسالته. فإذا وقع الريب (الشك) فيما أُنزل عليه من القرآن، بأنّ ذلك ليس من عند الله، وإنّما من صنع محمّد ﷺ أو ممّن يمليه عليه كما زعم الكفّار، فعليهم أن يأتوا بسورة من مثله، شبيهة في كلّ ما يتضمنه من بلاغة وإعجاز ودلالة، ولهم في ذلك أن يستعينوا بمن شاءوا من الشركاء (الأعوان والفصحاء). ومع شدّة عداوتهم له ورغبتهم في النفوذ إلى أيّ سبيل لإبطال دعوته، لم يستطيعوا هم وأعوانهم أن يصمدوا أمام هذا التحدي المعجز، وهذا يؤكد أن الذي جاء به الصادق الأمين محمّد ﷺ هو من عند الله عزّ وجل، وأنّ دعوى المنكرين لوحي الله فاسدة وباطلة وظالمة.

﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (24)

في الآية نفي مطلق لإمكانية الإتيان بسورة واحدة من مثل القرآن الكريم، قصيرة كانت أم طويلة، سواء في الحال أو المستقبل، وكذلك

فيها توكيد على أبديّة العجز البشري مهما ارتقى الإنسان في سلّم المعارف. ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاّ قَلِيلا﴾ (الإسراء 85) ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران 66). فالإعجاز حاصل والتحدي قائم.

عن عمرو بن العاص ﷺ أنه وفد على مسيلمة الكذاب قبل أن يسلم فقال له مسيلمة: ماذا أنزل على صاحبكم بمكة في هذا الحين؟ فقال له عمرو: لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة, فقال وما هي؟ قال عمرو: ﴿والعصر إن الإنسان لفي خسر﴾ ففكر مسيلمة ساعة ثم رفع رأسه فقال: ولقد أنزل علي مثلها فقال عمرو: وما هو؟ فقال مسيلمة: "يا وبر يا وبر إنما أنت أذنان وصدر وسائرك حقر فقر". ثم قال كيف ترى يا عمرو؟ فقال له: والله إنك لتعلم أني لأعلم أنك تكذب[١].

ومعنى الوقود في الآية: ما يلقى في النار لإضرامها كالحطب ونحوه، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ (الجن 15) وقال تعالى:﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾

---

١ ابن كثير (تفسير الآية).

(الأنبياء 98) والمراد بالحجارة: حجارة الكبريت العظيمة السوداء الصلبة المنتنة وهي من أشد الأحجار حرا إذا حميت.[١]

وفي كلمة (أعدّت) دلالة على أنّ النّار تمّ خلقها وإيجادها، وهذا قول كثير من العلماء، وهو الراجح، ففي الصحيح عن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ سَمِعَ وَجْبَةً فَقَالَ: النَّبِيُّ ﷺ تَدْرُونَ مَا هَذَا قَالَ قُلْنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ هَذَا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ مُنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفًا فَهُوَ يَهْوِي فِي النَّارِ الآنَ حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَعْرِهَا.[٢]

وذِكْر النّار مع عناصر توقدها، أبلغ في الترهيب، ممّا يُشَكّل عامل ردع، ليكون العبد باختياره وأدائه، أقرب إلى مرضاة الله عزّ وجل. وهذه النّار بصفتها التي ذكرت، هيّئت للكافرين المتكبرين على الحقّ، الجاحدين بدعوة محمّد ﷺ.

وفي الآية توكيد لمبدأ التحدي المطلق، وأنّ الإنسان عاجز عن الإتيان بمثل القرآن أو ببعضه ﴿فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا﴾ ليحول هذا الأمر دون إعجاب أصحاب الحقّ بالقيم والمبادئ التي نشأت خارج مظلة الوحي الإلهي، وبالتالي فلا مناص من جعل تعاليم الوحي الإلهي أساساً ومنطلقاً

---

١ انظر تفسير ابن كثير (تفسير الآية)
٢ مسلم، كتاب الجنّة وصفة نعيمها ، باب: شدّة حرّ نار جهنّم (2844) ؛وأحمد، كتاب باقي مسند المكثرين (8622)

لجميع التوجهات في ميادين التربية والتعليم. وأنّ القيم والمبادئ المستنبطة من كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ مرشحة للتحدي والثبات مهما عظمت مظاهر الفكر الوضعي، واتسعت دائرة المتغيرات فيه.

ولأجل أن تدب الحياة في عروق الضمائر الميتة، وتنجلي غشاوة الباطل عن عيون أصحابها، جاء الترهيب ﴿فاتقوا النّار التي وقودها النّاس والحجارة أعدّت للكافرين﴾.

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (25)

بعد الترهيب في الآية السابقة، جاء الترغيب هنا ﴿وبشّر الذين آمنوا ..﴾ ليحمل البشارة لأهل الإيمان والعمل الصالح. وهو من باب ذكر الشيء مع ما يقابله. لتصبّ جميع محصلات حوافز (الترهيب والترغيب) نحو بناء قاعدة (الإيمان اليقينيّ) بعيداً عن الشكّ والريب، ومن ثمّ قاعدة العمل الصالح، بعيداً عن ممارسات المفسدين والجاحدين.

والبشارة بالجنّة تدفع نحو العمل الصالح، رغبة بالفوز بها، أمّا ذكر محتواها ففيه زيادة في الترغيب، لما فيه من استحضار أجزاء النعيم.

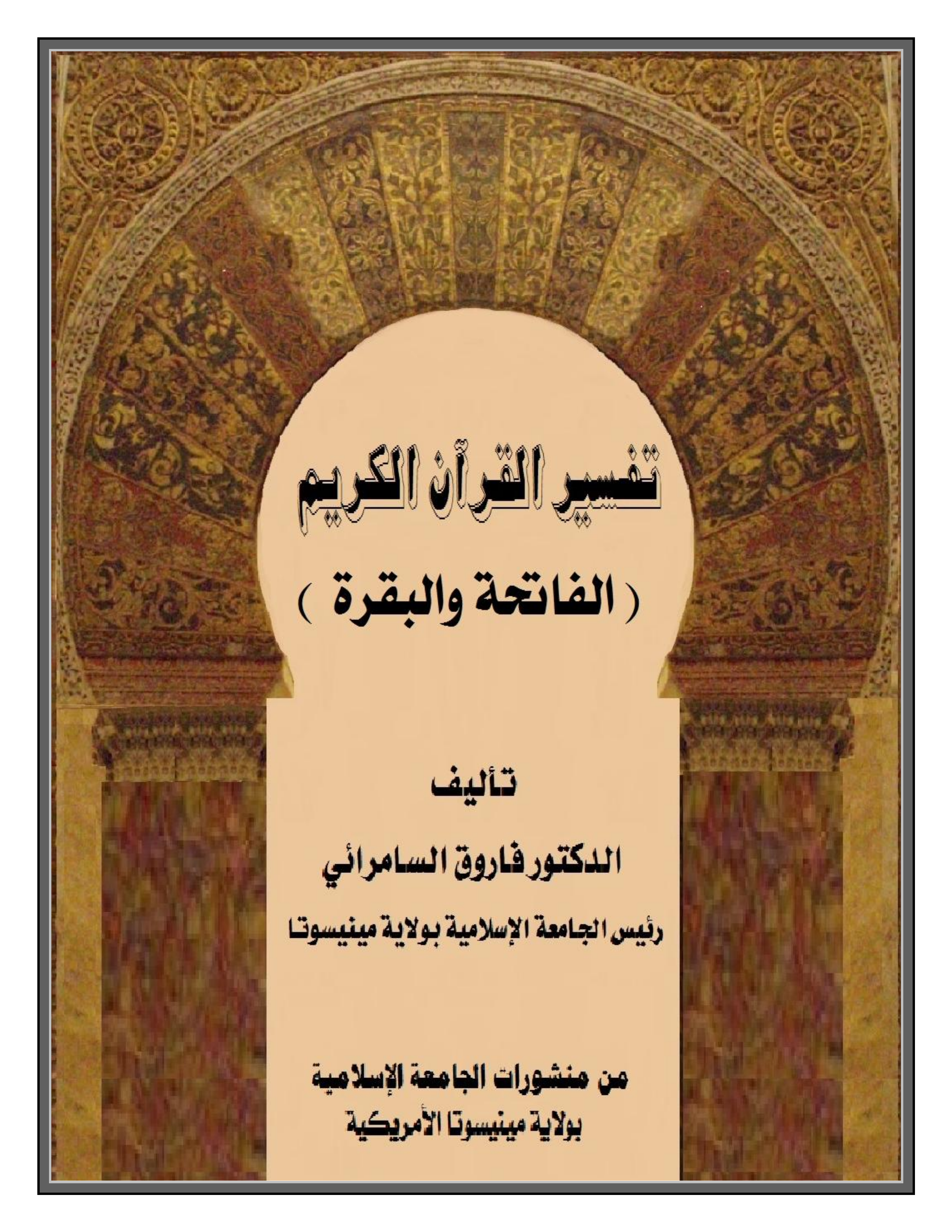
والمؤمنون في الجنّة ﴿كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابها﴾ أي قالوا: هذا يشبه الذي رزقناه في الحياة الدنيا. لكن الشبه هنا لا يعني المساواة، فهيهات أن يكون كذلك، قال رسول الله ﷺ : (قَالَ اللَّهُ عزّ وجل: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾)[١] فالذي يراه أهل الجنّة من التشابه حُكْم الظاهر، لما فيه من غرابة المماثلة عند المشاهدة قبل الطعم، فإذا طعم أهل الجنّة من نعيمها أدركوا منزلة النّعمة، وعظمة المنعم. وقد يكون التشابه في المسميات فقط، والله تعالى أعلم.

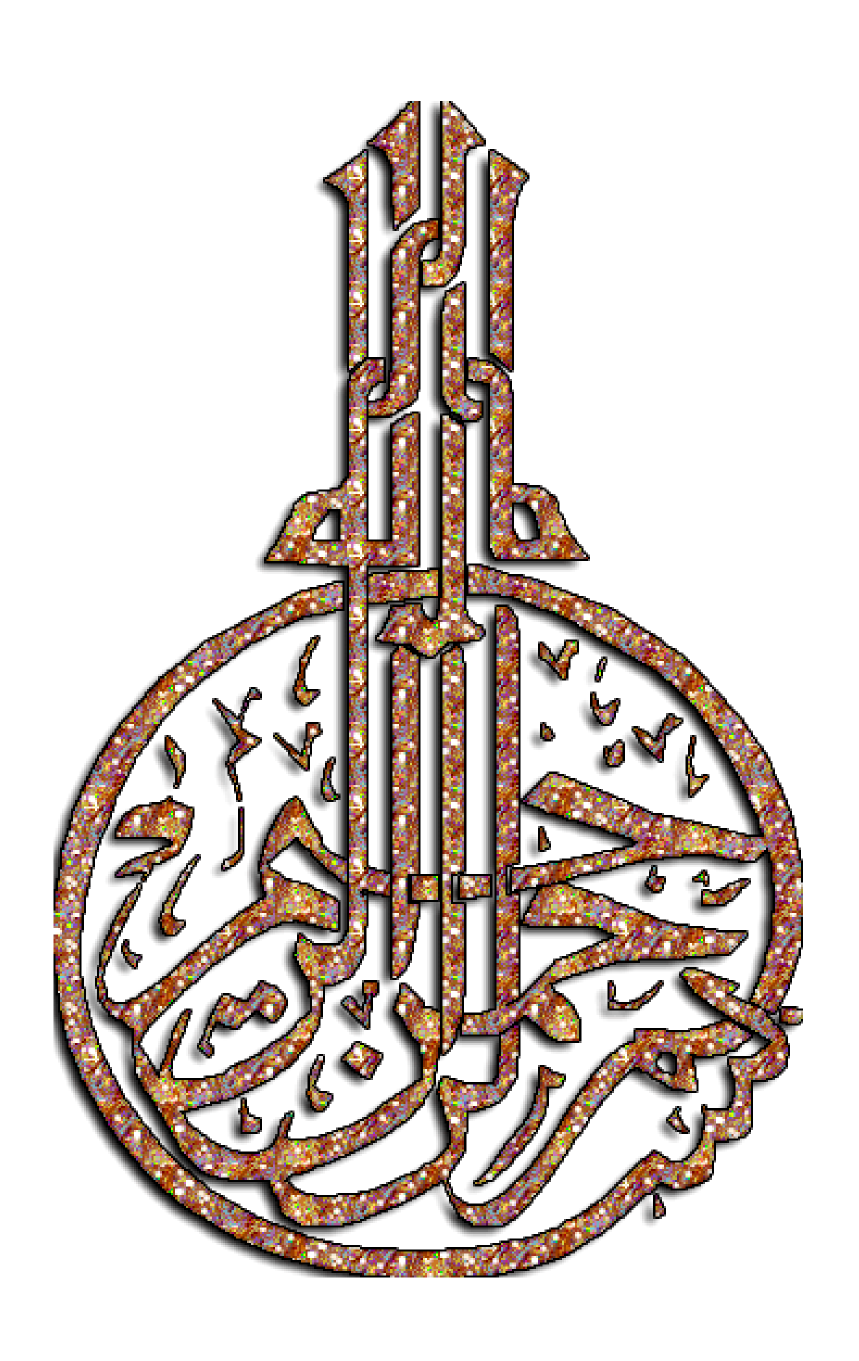
وفي طهارة الأزواج زيادة نعمة لأهل الجنّة، والراجح أنّ الطهارة مطلقة، فليس في نساء الجنّة ما يُنقص كمال التمتع بهنّ، من حيض أو نفاس أو غير ذلك.

---

١ البخاري، كتاب بدء الخلق ، باب: ما جاء في صفة الجنّة (3244) ؛ ومسلم، كتاب الجنّة وصفة نعيمها (2824)

والإشارة إلى الخلود في الآية، دلالة على دوام النّعمة واستمرارها، دون انقطاع أو نقصان. فكلّ نعمة من صفتها الزوال والانتهاء والانقطاع، تكون غصّة عند صاحبها، ففي اللحظات التي يتنعم العبد بها لوجودها، يزداد قلقه وخوفه من زوالها، وهذه من صفات نعيم الدنيا الزائل المنقطع. أمّا نعيم الآخرة فهو المقيم الدائم، الذي يستحقّ أن يتنافس فيه المتنافسون. ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ (المطففين 26) وأن يسعى لمِثْلِه العاملون ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ (الصافات 61).


تفسير القرآن الكريم
(الفاتحة والبقرة)
تأليف
الدكتور فاروق السامرائي
رئيس الجامعة الإسلامية بولاية مينيسوتا
من منشورات الجامعة الإسلامية
بولاية مينيسوتا الأمريكية


بسم الله الرحمن الرحيم

الجزء الثالث

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً ما بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاّ الْفَاسِقِينَ﴾(26)

في بيان مناسبة الآية وسبب نزولها يروي ابن مسعود ﷺ بقوله: لما ضرب الله مثلاً في المنافقين في قوله تعالى ﴿مثلهم كمثل الذي استوقد نارا﴾ وفي قوله تعالى ﴿أو كصيّب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق ..﴾ قال المنافقون: الله أعلى وأجل من أن يضرب هذه الأمثال فأنزل الله هذه الآية إلى قوله تعالى ﴿هم الخاسرون﴾.

وقيل كذلك: أنّه لما ذكر الله تعالى العنكبوت والذباب قال المشركون: ما بال العنكبوت والذباب يُذكران؟ فأنزل الله ﴿إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها﴾١.

ومعنى (لا يستحيي) أي لا يخشى ولا يمتنع من أن يضرب مثلاً بمن شاء من مخلوقاته صغر أم كبر، لأنّ العظمة في الخالق الذي أوجد من العدم وأبدع. واستُعمل المثل في مواطن عدّة في القرآن الكريم، فضَرَب

---

١ أنظر تفسير الآية في : القرطبي وابن كثير.

الله مثلاً في (الذباب، والعنكبوت، والكلب، والحمال، والشجرة، وغير ذلك) والغاية من ضرب المثل كما أخبر سبحانه بقوله: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُون﴾ (الحشر 21) وبقوله: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاّ الْعَالِمُونَ﴾ (العنكبوت 43)

ذُكر عن أحد السلف قوله: إذا سمعتُ المثل في القرآن فلم أفهمه بكيت على نفسي لأن الله قال: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاّ الْعَالِمُونَ﴾.

وسيق مَثَل البعوضة فما فوقها، للاختبار والامتحان، فالحقّ سبحانه وتعالى أراد أن يضلّ به كثيراً ممن كذّبه من المنافقين والكفّار، ويهدي به كثيراً من المؤمنين العارفين بالله، المعترفين على كمال حكمته وعظيم قدرته، ليزداد أهل الإيمان تفكّراً به، وإيمانا بمن ساقه.

وهذا المثل لا يُضلّ به إلاّ الفاسقين. والفسق هنا الخروج عن طاعة الله بالمعصية أو بالكفر، والفاسق يشمل العاصي والكافر، لكنّ الكافر فسقه أعظم. وتقع الضلالة على الفاسق بسبب فسقه وتماديه في طريق الغواية.

والراجح أنّ المراد بالفاسقين في هذه الآية هم الكفّار وليس عصاة المؤمنين، لأنّ عصاة المؤمنين لم يخرجوا عن طاعة الله بالكليّة، ولم يستكبروا على أوامره، ولم يُصرّوا على ما فعلوا، وإنّما وقعوا بالمعصية بسبب غلبة النفس الأمّارة بالسوء، وتصاعد غواية الشيطان لهم، فما يلبث أن يغشاهم الندم بعد فعل المعصية، ويهتف بهم الضمير الإيماني لحظة تذكّرهم جلال الله وعظمته. قال تعالى في وصفهم:﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران 135)

وتخصيص البعوضة بالمثل هنا، فيه إعمال الفكر البشري في كنه مخلوقات الله، قبل الحكم على شكلها وصورتها ، وكذلك تهيئة العقل البشري ليجوب في ميادين عظمة الخالق الذي منح الحياة لبعض مخلوقاته. فبالرغم من صغر حجم البعوضة إلاّ أنّ الباري جلّت قدرته أودع فيها ناموساً لحياتها، وأسلوباً لعيشها وتعايشها. ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ (طه 50).

ثمّ إنّ دلالة (ما فوقها) بشقي معناها المحتمل من الوجهة التفسيريّة (ما فوقها في الكبر، أو الصغر) تنمّي في الإنسان شموليّة التفكير

والمعرفة وعمق التصور ودقّه الملاحظة. فلكلّ معنى له دلالته الخاصّة وفق ما يلي:

أولاً: إذا عنينا بـ (ما فوقها) أي أكبر منها حجماً، فكم من المخلوقات التي تصلح لضرب المثل ترد إلى الذهن؟ كم عددها؟ ما أحجامها؟ ما مسلكها في الحياة؟ ما تأثيرها؟ ما دلالتها التربويّة إذا استُخدمت لضرب المثل؟ فهل يمكن أن نجد حدوداً للفكر، أو مساحة كافية للتصوّر حينما نجوب عالم هذه المخلوقات؟ إنّها دعوة نحو انطلاقة الفكر البشري في آفاق الكون وما فيه من مخلوقات الله، ومن ثمّ شموليّة التصوّر في ميدان هذا الوجود المتناهي بالنسبة لقدرات النّاس وحدود معارفهم.

ثانياً: وإذا عنينا بـ (ما فوقها) أي أعظم منها إعجازاً، فقد يكون المعني بها هو الأصغر منها حجماً، فيكون الأمر في غاية الدقّة في ضرب المثل. فقديما كان النّاس يعتقدون أنّ ضرب المثل بالبعوضة يدلّ على أنّها أصغر وأحقر المخلوقات التي خلقها الله، وإذا بالأمر يتعاظم حينما يُثبت العلم المتجدد، الذي بلغ عظمته في زماننا هذا، أن هناك من المخلوقات التي هي أصغر من البعوضة ما يضاهي في العدد أو يزيد عن تلك التي هي أكبر منها، وأنّ المثل كلّما ضُرب بما هو أصغر كان

أشدّ وأعظم لصعوبة الوصول إلى وجه الشبه. فإذا كان المشبّه به عنصراً في هذا العالم المتناهي في الدقّة والصغر، لزم لأجل ضرب المثل تفعيل العقل البشري بأسلوب ومنهجيّة علميّة تناسب مقتضى الدقّة في التصوّر لطبيعة العالم المشبّه به.

وضرب المثل في القرآن يحقق الهداية والدلالة للمؤمن نحو القيم التربويّة التي تزيد من فاعليّته لتحقيق الغاية من وجوده. أمّا أهل الكفر والفسوق فضرب المثل يزيدهم غواية وضلالا، لأنّ وجهة عقولهم بعد سماعهم المثل القرآني كانت صوب التكذيب والتشكيك.

﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (27)

وهؤلاء الفئة من النّاس الذين لم يرغبوا في إنشاء صلة الهداية بينهم وبين الله، أو أنّهم رغبوا في تقطيعها إن وجدت، هم أنفسهم الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، وهم الذين يقطعون ما أمر الله به أن يوصل. فالذي ينأى بنفسه عن طريق الهداية الربانيّة، سيكون عرضة للغواية الشيطانية، فتعصف به رياح الضلال، وتسوقه أوهام الباطل إلى

هوّة الضياع والخسران، وفي ذلك موعظة لمن أراد أن يستدرك أمره قبل فوات الأوان.

وفي الآية بيان لبعض صفات أهل الكفر والفسوق المشار إليهم في الآية السابقة، وأنّهم هم الخاسرون. وفي موطن آخر جعل الله تعالى اللعنة عليهم وسوء الدّار، قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ (الرعد 25).

ومن صفات الفاسقين:

الصفة الأولى: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ وقد يكون المراد بالعهد هنا هو الذي أخذه الله على بني آدم وهم في عالم الأصلاب، وهو المشار إليه في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ (الأعراف 172) أو هو أمر الله تعالى لعباده المتضمن توحيد ألوهيّته وإقرار ربوبيّته، وكذلك العمل بما أمر به من أحكام الدين، وما نهى عنه، بطريق إرسال الرسل، وإقامة الحجج والبراهين والمعجزات على أيديهم.

ولا مانع من الجمع بين الدلالتين، فلا يبعد أن يكون العهد الذي أخذه الله على بني آدم وهم في عالم الأصلاب هو من باب الإنشاء والتأسيس للعهد المتضمن مجمل التوحيد، أمّا الذي أخذه الله على عباده عن طريق رسله فهو من باب البيان والتفصيل لمضامين العهد ومتطلباته. والله تعالى أعلم.

الصفة الثانية: ﴿ويقطعون ما أمر الله به أو يُوصل﴾ من قرابة الأرحام وأعمال الخير. وهذا يدلّ على رغبة وجرأة المعنيين بالخطاب في تمزيق الوشائج والقرابات التي نشأت بسبب عالم الأرحام. قال الرسول ﷺ : (إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ حَتَّى إِذَا فَرَغَ مِنْهُمْ قَامَتْ الرَّحِمُ فَقَالَتْ هَذَا مَقَامُ الْعَائِذِ مِنْ الْقَطِيعَةِ قَالَ نَعَمْ أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ قَالَتْ بَلَى قَالَ فَذَاكِ لَكِ ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾)[1] وفي رواية: قال ﷺ : (الرَّحِمُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ تَقُولُ مَنْ وَصَلَنِي وَصَلَهُ اللَّهُ وَمَنْ قَطَعَنِي قَطَعَهُ اللَّهُ)[1]

---

١ البخاري، كتاب الأدب، باب: من وصل وصله الله (5987) ؛ ومسلم، كتاب البر والصلة، باب: صلة الرحم (2554)

الصفة الثالثة: ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ﴾ لتغيير معالم الحقّ وإحداث المنكرات وإشاعة الفواحش، وقد يكون الإفساد نتيجة لنقضهم عهد الله من بعد ميثاقه، وتقطيع الأرحام.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ إشارة لمن كانت تلك صفاته بأنّه خسر ثواب الله ورحمته، بسبب استحقاقه عذاب الله ونقمته.

ومن هنا ندرك حجم الخسارة في هذا العالم بسبب تزاحم اللصوص وقطّاع الطرق، الذين لا يعرفون للخير سبيلا، ولا للرحمة طريقا. فكم أحدثوا بفسادهم وإفسادهم من دمار ماديّ وبشري؟ وكم أُزهقت من الأرواح البريئة بسبب جُرمهم واستخفافهم بكرامة الإنسان ؟ كم من الشعوب عاشت كربة الجوع والخوف بسبب ظلمهم وطيشهم؟

إنّنا بحاجة إلى سفينة النجاة، وإلى مركب هداية، قيادته من نوع آخر ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ (الرعد 21) لتكون مسيرة العمل الإسلامي، مبعث الأمل - بعد الله - لإصلاح الواقع بعد تردّيه، وتقويم حياة النّاس بعد اعوجاجها.

---

١ مسلم، كتاب البر والصلة ولآداب, باب: صلة الرحم (2555)

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (28)

من النكران والجحود أن تكون العبادة والطاعة لغير الله، وهو سبحانه الموجِدُ من العدم، المـُميت بعد الوجود، المحيي بعت الموت، بيده وحده القدرة على فعل ذلك متى يشاء، وكيف يشاء، وفيمن يشاء. ودلّ قوله تعالى ﴿وكنتم أمواتاً فأحياكم ﴾ على قدرته سبحانه في إيجاد الوجود من العدم، كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا ﴾.(الإنسان 1)

وقيل أنّ الله خلق النّاس في ظهر آدم ثم أخذ عليهم الميثاق الوارد ذكره في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي ءَادَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ (الأعراف 172) ثم أماتهم ثم خلقهم في عالم الأرحام ثم أماتهم ثم أحياهم يوم القيامة[١]. وهذا الفهم سببه اعتقاد بعض النّاس بحتميّة وجود الحياة للأشياء مسبقاً عند وصفها بالموت، والأمر على الأرجح ليس كذلك، لأنّ الله سبحانه وتعالى وصف الأصنام بالموت مع أنّها لم تكن حيّة يوماً ما.

---

١ أنظر: تفسير ابن جرير، وابن كثير (تفسير الآية)

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ، أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ (النحل 20، 21).

ودلّ قوله تعالى: ﴿ثمّ يميتكم﴾ على أجل الموت المقدر للبشر والذي تنتهي به رحلة الحياة. كما دلّ قوله تعالى: ﴿ثمّ يحييكم ﴾ على إعادة الحياة للنّاس لأجل البعث والنشور والاستعداد للحساب والجزاء، ولا مناص من الرجوع إلى الله سبحانه والوقوف بين يديه ﴿ثمّ إليه ترُجعون﴾.

وهذه التذكرة جديرة بأن تكون عنصراً هامّا من عناصر اليقظة في تكوين الشخصيّة الإسلاميّة، كي تجعل صاحبها في موقع الحمد والشكر الذي يليق بعظمة الخالق المنعم المتفضل.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيم﴾(29)

بعد ذكر القدرة الإلهيّة المطلقة في الخلق والإفناء والإعادة، تأتي الإشارة إلى عظيم قدرته في خلق ما في الأرض جميعاً واستغراق خلقه لكلّ ما حوته الأرض ظاهراً وباطنا، ثمّ استوى (أي قصد وأقبل) إلى السماء فخلقها سبع سماوات، سماء فوق سماء، ممّا يدلّ على أنّ خلق الأرض سابق لخلق السماء. ﴿وهو بكلّ شيء عليم ﴾ إشارة إلى علمه المطلق.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾(30)

هنا يكشف خطاب الله عزّ وجل عن عنصر من عناصر الغيب، فلا يعرف حقيقة الملائكة وكنهها إلاّ الخالق جلّ وعلا، وليس لنا من المعرفة بأخبارهم إلاّ في مظلّة إعلام وحي الله سبحانه، سواء ما ورد في القرآن الكريم أو السنّة النبويّة الصحيحة، أمّا سوى ذلك فلا يصحّ الخوض في الغيبيات أو التحدث عنها، لأنّ عالم الغيب من اختصاص الله وحده ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (الأنعام 59)

وتضمّنْ إخبار الله للملائكة، إعلامهم بإرادته سبحانه في جعل خليفة في الأرض. فمن المعني بالخليفة ، هل هو آدم عليه السلام، أم جميع البشر المكلفين بالاستخلاف؟ هذا الأمر فيه خلاف عند العلماء نوجزه بما يلي:

أولاً: إنّ الخطاب يشمل عموم النّاس وليس آدم عليه السلام وحده، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ

فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الأنعام 165) وقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَءِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (النمل 62) فكلمة (جعلكم) أفادت الجمع وليس الإفراد.

وكذلك ورد في جواب الملائكة:﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ ما يدلّ على أنّ المعني ذات الجنس الذين تتواجد فيهم مثل هذه الصفات.

الثاني: إنّ المراد بالخليفة هو آدم عليه السلام وحده، وذلك لورود الإشارة إليه بشكل خاص في الآيات التي تلت هذه الآية.

التوفيق بين القولين: هو أنّ الاستخلاف في الأرض شمل آدم عليه السلام وذريته، لكن ما يميّز آدم عليه السلام عن غيره كونه أوّل المستخلفين من البشر، أي أنّ الله خصّ آدم في استخلافه بالابتداء، وشمل غيره بديمومة الاستخلاف واستمراره. والله تعالى أعلم.

ومعنى ﴿خليفة في الأرض﴾: أي من يخلف الحقّ سبحانه في إقامة شرعه ومنهجه في الأرض، وأن يحكم بالعدل وفق أوامره ونواهيه.
ومن ذلك قوله سبحانه لداود عليه السلام: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً

فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ﴾ (سورة ص 26). سواء كان المستَخْلَفُ آدم عليه السلام أو من يخلفه في ذلك ممّن جاء بعده من الأنبياء والرسل، أو غيرهم من عباد الله المؤمنين حتى تقوم الساعة.

ولم يكن سؤال الملائكةُ ربّهم من قبيل الاعتراض على مراده سبحانه، لأنّهم كما وصفهم الله تعالى ﴿لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ (الأنبياء 27) فلا يسألون الله أمراً لم يأذن لهم فيه. وإنّما كان من قبيل الاستفسار والاستيضاح عن حكمة مراده، فقد أشكل عليهم الأمر، لما يعلمون عن طبيعة البشر (الإفساد وسفك الدماء) التي من المحتمل أن يكون الله قد أعلمهم الله عنها مسبقاً قبل السؤال، أو أنّم فهموا أنّ الاستخلاف يقتضي التكليف في مظلّة افعل ولا تفعل، وهذا الأمر سيؤدّي إلى صراع بين الحقّ والباطل، وبالتالي سيكون هناك إفساد وسفك للدماء.

ويحتمل كذلك أن يتضمن قصد الملائكة من السؤال رغبة داخليّة لديهم في أن يكونوا هم خلفاء الله في الأرض، لما في ذلك من تكريمٍ للمستَخْلَف ورفعٍ لمنزلته، خصوصاً وأنّ الملائكة يتصفون بصفات (دوام التقديس والتسبيح والحمد لله) التي تليق بوظيفة الاستخلاف كما يعتقدون. ومع ذلك فإنّ الملائكة ما كان لهم أن يسألوا عن ذلك ألاّ بعد

أن أذن الله لهم به، لأنّهم ﴿لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (التحريم 6).

﴿ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك﴾ قيل أنّ المراد بذلك (الصلاة) وقيل: قصدوا بذلك تنزيه الله وتعظيمه وتكبيره. وكلّ ذلك محتمل الدلالة والمعنى.

﴿قال إنّي أعلم مالا تعلمون﴾ الخطاب يدلّ على اختصاص الله وحده بمطلق المعرفة، فبالرغم من قرب الملائكة منه سبحانه، لكنّهم جهلوا حقيقة مراده في جعل استخلاف البشر في الأرض، وإبقاء الملائكة في السماء. وأنّ الحكمة الإلهيّة الموصولة بمعرفته المطلقة هي موضوع اختبار وامتحان لمعارف للملائكة.

والآية تؤكد على أنّ الإنسان هو محور التكليف في مهمّة الاستخلاف في الأرض، وقد اختاره الله لذلك، وكان اختياره سبحانه من مقتضى علمه المطلق الذي أعجز به ملائكته المقربين. وبما أنّ الإنسان يمثّل عنصر الاستخلاف في الأرض، فهو بالتأكيد يمثّل المحور الأساس الذي تدور حوله مسيرة الحياة، الأمر الذي يستدعي دراسة وافية لطبيعة الإنسان (المستخلَف) وإمكاناته، ومن ثمّ دراسة مستفيضة لعناصر المنهج الرباني الذي يرسم طريق الاستخلاف في الأرض، كي يعيش منهج الله - المسدد بوحيه - واقع الحياة، بأعلى درجات الكمال المقدّر للبشر.

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (31)

أي علّمه الله جميع مسميات المخلوقات وما في الكون من أسماء، والتي سيتعامل معها المستخلَف لاستكمال مهمّة الاستخلاف في الأرض، وفق متطلبات منهج الله.

وفي كلمة (كلّها) تفيد الإحاطة والشمول. وهذا العلم جاء مباشرة من عند الله لآدم عليه السلام، بلا واسطة من الملائكة المقربين، أمّا كيفيّة التعليم فذلك بعلم الله، فقد يكون إلهاما، بأن يقذف في قلب آدم مسميات عناصر الوجود.

ثمّ عرض هذه الأسماء على الملائكة المقربين ليثبت للجميع أنّ المخلوقات عاجزة عن الوصول إلى معرفة الأشياء من غير تعليم الحقّ سبحانة وتعالى لها.

﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي إن كنتم عارفين وعالمين بهذه الأسماء، وليس معنى ذلك وجود احتمالية الكذب عند الملائكة فهذا محال أن يقع في جنسهم لأنّ الله نزّههم عن النّقائص، وهذه من صفاتهم، وهي قرينة تصرف جميع المعاني التي لا تناسب تلك الصفات، فهم ملائكة الله الكرام.

وهذا المطلب مقتضاه بيان عجز الملائكة عن معرفة الأسماء، فكيف يُدركون كنه مراد الله في جعل الاستخلاف في الأرض من جنس البشر؟

ثمّ إنّه من المحتمل أن يكون الملائكة قاسوا حكمهم على ما علموه عن جنس الجنّ الذين سكنوا الأرض قبل الإنسان، وأفسدوا فيها، وسفكوا الدماء، فجاءت ﴿إن كنتم صادقين﴾ لردّ هذا القياس عليهم، أو أنّ الله قد ردّ عليهم إجتهادهم فيما تنبأوا به من أحداث قادمة هي في علم الغيب، ولا يعلم الغيب إلا الله تعالى. وفي هذا تصحيح للملائكة وليس من قبيل الطعن فيهم.

ويبدو أنّ السؤال من جهة الملائكة أساسه الحبّ الشديد لله تعالى، وكراهيتهم أيّ إفساد من جهة الخلق في ملكوت الله تبارك وتعالى.

وفي الآية ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ جانب تعليمي، وسمة تربوية، أساسها وجود عناصر المعرفة، ويدلّ لفظ ﴿الأسماء كلّها﴾ على ضرورة التوسع في دائرة التعليم ليستغرق المتعلم أكمل ما يمكن تعلّمه من عناصر المعرفة، وليكون أقدر على التعامل مع متطلبات الحياة بشمول واتساع.

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (32)

أجابت الملائكة بالتنزيه والتعظيم للعليم المحيط بعلمه كلّ الوجود، وشهدوا على أنفسهم بالعجز عن معرفة الأمور لولا تعليم الله لهم، وما يقدّره لهم من حدود المعرفة بعلمه وحكمته.

وفي هذه الآية دلالة واضحة على كذب من ادعى علم الغيب من الكهنة والسحرة والمنجمين والدجالين. وحتى رسول الله ﷺ لا يملك من المعرفة بأمور الغيب سوى الذي أعلمه الله به ﴿قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف 188)

وإجابة الملائكة دلّت على حصر أساس المعرفة في الحقّ سبحانه، وفيما يصدر عنه من أحكام وتعاليم، وهذه حقيقة يجب أن يدركها أهل العلم والفتوى عندما تُغلق عليهم مسائل العلم، وتشعب المعارف، أن يقولوا بكلّ تواضع إذا سئلوا: (لا نعلم. والله أعلم) ليتوقفوا عند حدود معارفهم. فالعالم إذا أجاب عن سؤال لا يعرفه بقول: (لا أعلم) فهو عالم بمحدودية علمه. أمّا الجاهل فالأمر عنده سيّان، لأنّ غمامة الجهل تحول دون إدراكه لجهله، وقلّما نسمع كلمة (لا أعلم) من الجاهل، لجهله بحاله أنّه لا يعلم. وهذا

الصنف من النّاس أخبر عنه النّبي ﷺ بقوله: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ من الناس وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ حتى إذا لم يَتْرُكْ عَالِمًا اتَّخَذَ الناس رؤسا جُهَّالاً فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ النَّاسِ وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ حَتَّى إِذَا لَمْ يَتْرُكْ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالاً فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا)[١]

وروي عن عمر ﷺ أنّه قال: لا تزيدوا في مهور النساء على أربعين أوقية، فمن زاد ألقيت زيادته في بيت المال، فقامت امرأة من صوب النساء فقالت: ما ذلك لك قال: ولم؟ قالت لأن الله عز وجل يقول: ﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ (النساء 2) فقال عمر: امرأة أصابت ورجل أخطأ.[٢]

وروي أنّ الإمام مالك بن أنس سئل عن ثمان وأربعين مسألة فقال في اثنتين وثلاثين منها: لا أدري.[٣]

---

١ صحيح مسلم ج4/ص2058

٢ كنز العمال ج16/ص226، عون المعبود ج6/ص95، تحفة الأحوذي ج4/ص215

٣ تحفة الطالب ج1/ص456، فتاوى ابن الصلاح ج1/ص13، أدب المفتي والمستفتي ج1/ص79، سير أعلام النبلاء ج8/ص77

﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السماوات وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (33)

بعد إقرار الملائكة بنفي علمهم بأسماء الأشياء، طلب الله من آدم عليه السلام أن يُخبرهم بها. وهذا يدلّ على حكمة الله في اختيار آدم ليُخبر الملائكة بالأسماء، بعد تعليم الله له. وهي خصوصيّة تميّز بها آدم عليه السلام. وكذلك أكّدت الآية على مطلق علم الله الذي وسع غيب السماوات والأرض، كما وسع ظاهر الأمور وباطنها.

وفي طلب الله من آدم لأنْ يُخبر الملائكة بالأسماء، علوّ لشأن المُعلّم من البشر، بأن يكون المتلقين عنه والمتعلمين منه هم الملائكة الكرام. وكذلك يدلّ على أهميّة المعرفة المتصلة بالله. ولهذا فإنّ أشرف العلوم على وجه الأرض تلك التي يتلقاها الإنسان عن ربّه بطريق وحي الله لرسله. فكما أنّ الملائكة تواضعت لآدم حين أصغت واستمعت له في تعلّمها أسماء الأشياء منه، كذلك فإنّ الملائكة تضع أجنحتها تواضعا ورضا لطالب العلم بما يصنع.

عن قَيْسِ بن كَثِيرٍ قال: كنت جَالِسًا مع أبي الدَّرْدَاءِ في مَسْجِدِ دِمَشْقَ فاتاه رَجُلٌ فقال: يا أَبَا الدَّرْدَاءِ اني أَتَيْتُكَ من مَدِينَةِ الرَّسُولِ ﷺ لِحَدِيثٍ بَلَغَنِي عَنْكَ انك تُحَدِّثُهُ عن رسول اللَّهِ ﷺ ، قال: أَمَا جِئْتَ لِحَاجَةٍ؟ قال: لا، قال: أَمَا قَدِمْتَ لِتِجَارَةٍ؟ قال: لا، قال: ما جِئْتُ إلا في طَلَبِ هذا الحديث، قال فَإِنِّي سمعت رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول: (من سَلَكَ طَرِيقًا يطلب فيه عِلْمًا سَلَكَ الله به طَرِيقًا إلى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضَاءً لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ له من في السماوات وَمَنْ في الأرض حتى الْحِيتَانُ في الْمَاءِ، وَفَضْلُ الْعَالِمِ على الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ على سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، إِنَّ الأَنْبِيَاءَ لم يُوَرِّثُوا دِينَارًا ولا دِرْهَمًا إنما وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ) [١]

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (34)

الخطاب بالجمع في قوله تعالى (وإذ قلنا) من باب التعظيم والتفخيم لمن يملك الأمر، وهو الله وحده لا شريك له. وفي أمر الله للملائكة بالسجود لآدم فيه عدّة أوجه، منها:

---

١ سنن الترمذي ج5/ص48، سنن الدارمي ج1/ص110، مسند أحمد بن حنبل ج5/ص196

أولا: أنّ السجود كان لذات آدم، لكن ليس من قبيل العبادة والطاعة له، وإنّما هو الاحترام والتقدير والتحيّة، لأنّ سجود العبادة والخضوع لا يكون إلاّ لله جلّ في علاه كما نصّت على ذلك الآيات القرآنيّة والأحاديث النبويّة. وبذلك تكون الطاعة والانقياد والخضوع والتذلل لأمر الله، والسجود لآدم.

ثانيا: قد يكون السجود لأجل التعظيم والتقديس للنفخة الإلهيّة التي كرّم بها آدم عليه السلام، والتي نسبها الله تعالى إليه بقوله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾(الحجر29).

ثالثا: يُحتمل أن يكون معنى الأمر بالسجود لآدم، هو طلب التوجّه صوب آدم عند سجودهم لله، مثلما يسجد النّاس لله تعالى ووجهتهم صوب الكعبة. لأنّ لفظ (اسجدوا لآدم) قد يكون معناه : اسجدوا إلى آدم، كما يُقال: صليت للكعبة، أي : إلى الكعب. فيكون السجود جهته صوب آدم، وحقيقته لله. كما في قوله تعالى: ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ ..﴾ (الاسراء 78). والله تعالى أعلم.

أمّا ما ذهب إليه بعض العلماء من أنّ السجود لغير الله كان مسموحاً به في الأمم السابقة، واحتجّوا بذلك على سجود أبوي يوسف عليه السلام

ليوسف، الوارد ذكره في قول الله تعالى: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ (يوسف 100). فهذا الاحتجاج فيه نظر، لأنّ سجود الأبوين ليوسف كان من قبيل التحيّة والاحترام، وليس من باب العبادة والتذلل. وقد يكون السجود على هيئة انحناء، على غير هيئة السجود المعهودة في الصلاة. فليس من المعقول شرعاً أن تصرف دلالة السجود لغير الله إلى ذات معنى السجود لله جلّ جلاله. حيث لم يسمح الحقّ سبحانه بأن يكون السجود المتضمن الخضوع والتذلل، لأحد من خلقه في أيّ زمان أو مكان.

وبسبب أمر الله الملائكة بالسجود لآدم ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ وتعليم آدم للملائكة، اختلف العلماء في المفاضلة بين بعض البشر والملائكة، ولا حاجة هنا في تناول مثل هذا الموضوع، خصوصاً وأنّ ذلك لا يُغيّر من حصيلة الدلالة القرآنيّة. ومجمل إيماننا بذلك هو: أنّ الله سبحانه وتعالى كرّم آدم بسجود الملائكة له كما في الآية، وكرّم ذريّته بسجود الملائكة لأبيهم، وفضلهم على كثير ممّن خلق ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آَدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ (الاسراء 70)

أمّا الحديث عن ماهيّة إبليس وأصله، فالعلماء في ذلك على خلاف، هل إن إبليس من جنس الملائكة أم غير ذلك؟ وفي ذلك أقوال كثيرة ساقها العلماء في كتب التفسير، ومعظمها قد يُخرج دلالة النّص القرآني عن المقاصد والأهداف.

والمناسب في دلالة النّصّ هو أنّ إبليس كان من الملائكة في الإتباع والطاعة والانقياد لأوامر الله، وليس من جنسهم، لأنّ أصله من الجنّ ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ (الكهف 50) ثمّ إنّ الملائكة خلقت من نور، وإبليس خلق من نار كما ورد في القرآن الكريم ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ (الأعراف 12) . وكذلك فإنّ الاستثناء في قوله ﴿إلاّ إبليس﴾ هو استثناء منقطع، حيث يخالف فيه جنس المستثنى، المستثنى منه. ثمّ إنّ الملائكة بطبيعتهم لا يستكبرون عن عبادته سبحانه بشهادة الله لهم ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾ (الأعراف 206) وفي نفس الوقت ﴿لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (التحريم 6) فليس من المعقول أن يكون العاصي والمتكبّر (إبليس) من أصل نشأتهم. ثمّ إنّ إبليس له ذريّة تتوالد وتتكاثر ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ

بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلا﴾ (الكهف50) وصفة التزاوج والتكاثر في عالم الشياطين مخالفة لصفات الملائكة.

وفي قوله تعالى: ﴿أبى واستكبر﴾ أبى بامتناعه عن السجود لآدم، وتكبّر بقوله ﴿أنا خير منه﴾. ﴿وكان من الكافرين﴾ بسبب ذلك كلّه أصبح من الكافرين.

وفي الجانب التربوي للآية فإنّ معصية إبليس لأمر الله في رفضه السجود لآدم كان سببها الكبر، والشعور بالفوقيّة، وهو من الأمراض التربويّة التي تخلّ بالتوازن الاجتماعي، وبمبدأ المساواة بين عباد الله. فالمتكبّر منتفش حول ذاته، متجاوز لحدوده. فكان الجزاء من جنس العمل بأن جعل الله المتكبّر يوم القيامة من الذين تتجاوزهم رحمة الله، قال رسول الله ﷺ: (لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِى قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ)[١] لذلك ينبغي أن نحوْل دون تنامي عناصر الكبر والتكبّر في جميع مراحل البناء التربوي، و من أظهر معالم وصيّة لقمان لابنه، أن نهاه عن مظاهر الكبر والتفاخر ﴿وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (لقمان 18) . قال رسول الله ﷺ:

---

١ صحيح مسلم ج1/ص93، سنن الترمذي ج4/ص360

(مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ دَرَجَةً رَفَعَهُ اللَّهُ دَرَجَةً حَتَّى يَجْعَلَهُ فِى عِلِّيِّينَ وَمَنْ تَكَبَّرَ عَلَى اللَّهِ دَرَجَةً وَضَعَهُ اللَّهُ دَرَجَةً حَتَّى يَجْعَلَهُ فِى أَسْفَلِ السَّافِلِينَ).[١]

﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (35)

بعد إكرام الله لآدم بأن سجدت له الملائكة، أكرمه الله ثانية بإسكانه الجنّة ليأكل من نعيمها الواسع هنيئاً طيبا. وفي نفس الوقت نهاه وزوجه عن الأكل من الشجرة المعلومة لديهم، المحددة بإطار الحكم، وأيّاً كان نوعها لا يعنينا، لأنّ معرفة النّوع لا يُغيّر من دلالة النّهي، لكن المهم أنّ الله سبحانه وتعالى جعل مرحلة الجنّة هذه تمهيداً لمسيرة الاستخلاف في الأرض.

وتجدر الإشارة هنا إلى خلاف العلماء في تحديد ماهيّة ومكان الجنّة التي أسكن الله فيها آدم عليه السلام وزوجه. أهي جنّة الآخرة أم بستان هُيّئت فيه أسباب النّعيم، ومستلزمات الاختبار والابتلاء ضمن مناط التكليف (افعل ولا تفعل) وعن مكان الجنّة أهو في السماء أم في الأرض؟ ولا أجد حاجّة ضروريّة للدخول في مثل ذلك، خصوصاً وأنّ

---

١ مسند أحمد، ج3/ص76

ظاهر دلالة النّص يتسع لبيان مقاصده، وهذا هو المعوّل عليه في منهجنا في هذا التفسير.

ولعلّ خطاب الباري عزّ وجلّ ﴿اسكن أنت وزوجك الجنّة﴾ فيه ما يُؤكد مبدأ الترغيب والترهيب، فدخول آدم عليه السلام ميدان النّعيم ﴿فكلا منها حيث شئتما رغدا﴾ وتمتعه به، ثمّ صرفه عنه عندما أُخرج من الجنّة، يجعل آدم عليه السلام وذريّته ضمن مسيرة الاستخلاف في الأرض أكثر شوقاً ورغبة إلى كرم الله، واستشعار نعمة الطاعة والانقياد لأوامر الله، ليكون الحذر أكبر من كيد الشيطان الذي كان سبباً في إخراج آدم عليه السلام من تلك النّعمة.

وجاء النّهي عن الأكل بصيغة ﴿ولا تقربا﴾ لتوكيد حكم النّهي عن أكلها، فإذا كان القرب من الشجرة منهيّاً عنه، فحرمة الأكل منها من باب أولى.

وفي قوله تعالى: ﴿فتكونا من الظالمين﴾ تدلّ على أنّ فعل المعصية ظلم، يظلم فيها الإنسان نفسه بتعريضها للعقاب المترتب عليها، ويظلم غيره حينما يتعدّى أثر معصيته إلى غيره.

لقد كان سكن آدم في الجنّة تمهيداً لمسيرة الاستخلاف في الأرض، وهي فترة اختباريه لتدريب آدم عليه السلام قبل استخلافه في الأرض على قاعدة التكليف (افعل ولا تفعل). وليست الجنّة المعنيّة في الخطاب هي المنتهى، لأنّ الله سبحانه أخبر ملائكته عن غاية خلق آدم ﴿إنّي جاعل في الأرض خليفة﴾ وعلى ذلك فإنّ حياة آدم في الجنّة بمثابة محطّة اختبار لإعداد المستَخلَف في الأرض، وهي فترة مؤقتة، زمنها مرتبط بالغاية من دخولها، لتكون تلك المرحلة الصورة الأولى في حياة البشر لمظلّة التكليف (افعل ولا تفعل) . فالجنّة بالنسبة لآدم كانت موقعاً تجريبيّاً للتأكيد على أهميّة إسقاط تعاليم الوحي الإلهي في أرض الواقع، ثمّ اكتشاف أوجه الخلل بعد امتزاج المنهج الرباني بالواقع البشري، ليتمكن المكلّف من تصحيح المسار التكليفي، بعد تراكم الخبرات، واتساع دائرة الدراية بواقع الأحكام.

﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ [36]

أي بسبب غواية الشيطان وتأثيره، أكل آدم عليه السلام وزوجه من الشجرة المنهيّ عنها، فلخرجهما الله من تلك الجنّة ونعيمها، لتبدأ رحلة التكليف والاستخلاف على الأرض التي شاء الله أن تكون مسرحاً لها.

ودلّ لفظ (اهبطوا) على النزول بسبب التفاوت الهائل بين منطلق التكليف ومستقرّه, وبين واقع الأمن والرخاء في الجنّة، وواقع المعاناة على الأرض حيث العداوة والبغضاء.

والذي يظهر لي – والله تعالى أعلم - أنّ الإخراج من الجنّة هو عقاب ترتب على خطأ آدم عليه السلام، بأن يُحرم نعيم جنّة الدنيا بسببه، أمّا الهبوط إلى الأرض فهو مرتبط بمهمّة الاستخلاف، وليس من آثار العقاب. لأنّ مراد الله في أن تكون الأرض محطّة التكليف كان منذ البداية حينما أعلم الله ملائكته ﴿إنّي جاعل في الأرض خليفة﴾. أمّا ما ذُكر من قصص حول حواء والشيطان والشجرة والأفعى، وتعليل خروج آدم من الجنّة بفعل حوّاء وما إلى ذلك، فليس من حاجة لأن نكلّف أنفسنا بالخوض في مثل تلك الروايات، وعلينا أن نكتفي بما أعلمنا الله عنه دون تفصيل أو إسهاب، لأنّ هذا الأمر يُخرجنا عن موضوعيّة الوقوف عند حدود النّصّ القرآني، وبالتالي يُحمّل الموقف مالا يخدم الدلالة التي قصدها الحقّ سبحانه وتعالى.

ومن هنا ينبغي أخذ الحيطة والحذر من أهل المعاصي، فإبليس بعد المعصية أصبح عدوّاً لعباد الرحمن، همّه وغايته صرف العباد عن هدي الله، فالذي يعصي الربّ سبحانه، ويتمادى في معصيته، لا يمكن أن

يحقق للخلق مصلحة، بسبب فساد نيّته، وتغيّر سريرته. لذا يلزمنا أخذ الحيطة والحذر من وسوسة الأعداء، كي لا تزلّ قدمنا بالمعصيّة، بعد ثبوتها بالطاعة، فنُطرد من رحمة الله بتبعيتنا لهم، واستماعنا لما يُملون علينا من أفكارهم الهدّامة، فيُخرجونا من رحمة الله.

وفي لفظ ﴿فأزلّهما الشيطان﴾ و ﴿فأخرجهما﴾ دلّ على أنّ الخطأ وقع من الاثنين معاً بتأثير الشيطان عليهما، وعقوبة الإخراج وقعت عليهما معاً. وكان وقت دخولهما الجنّة وخروجهما منها في يوم الجمعة كما أخبر النّبيّ بقوله: (خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ فِيهِ خُلِقَ آدَمُ وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا).[١]

﴿ولكم في الأرض مستقرّ ومتاع إلى حين﴾ فالأرض مكان استقرار الإنسان بقدر استخلاف الله له فيها، ورزقه إلى قدر معلوم بقضاء الله، لتقوم بعدها الساعة فتُنهي حياة البشر.

﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[(37)]

لا نعلم كنه وحقيقة تلك الكلمات، لكن دلالة النّصّ تفيد بأنّها كانت سبباً في قبول توبة آدم. وقيل إن هذه الكلمات مفسرة بقوله تعالى: ﴿قَالا رَبَّنَا

---

١ مسلم، كتاب الجمعة، فضل يوم الجمعة، رقم الحديث (854).

ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الأعراف 23) فكانت سبباً في قبول التوبة لما فيها من صدق الإقرار بالذنب، والعودة والإنابة إلى لله، لعلم التائب أنّ الله وحده هو التوّاب الرحيم.

والتوبة هنا انحصرت في آدم، ولم ترد الإشارة إلى زوجته، مع أنّها ذُكرت مع آدم عليه السلام في دخول الجنّة والمعصية والعقوبة، وهذا الأمر قد يدلّ على أهميّة إصلاح الرجل لنفسه، ومن ثمّ تأثير ذلك في زوجته وأسرته، فكأنّ توبة زوج آدم كانت تحصيل حاصل لتوبة زوجها آدم. فالأهمّ ذكر الأصل، ليدلّ ضمنيّاً على تحقق ما اتصل به، وترتب عليه.

وهذا الجانب له أهميّة كبيرة في منهج التربية الأسريّة في ضوء الفكر الإسلامي، ولهذا ورد في خطاب الله لأولياء الأمور ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (التحريم 6) فوقاية النفس تقدمت على وقاية الأهل، لأنّ الذي يعجز عن وقاية نفسه من النّار، يكون أعجز عن وقاية أهله، وفاقد الشيء لا يُعطيه.

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(38)

الخطاب يشمل آدم عليه السلام، وزوجه، وإبليس، وبعد ذلك ذريّة آدم عليه السلام، لتتكامل عناصر الاستخلاف، وما يترتب على ذلك من صراع بين الحقّ والباطل. ومعنى ﴿يأتينّكم منّي هدى﴾ أفاد حصر طريق الهداية في وحي الله المنزل على رسله وأنبيائه، الذين يواصلون مسيرة الاستخلاف في الأرض على أكمل صورها، ليحققوا لأتباعهم سبيل الهداية، وهو ذاته سبيل تحقيق مرضاة الله، والفوز بكرامة الدارين، ونعيم الله المقيم، حيث لا قلق ولا خوف ولا شقاء بعده.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (39)

إشارة إلى عاقبة من كفر وكذّب بآيات الله، بأنّه من أصحاب النّار الملازمين لها، الملتصقين بعذابها، الماكثين فيها بلا نهاية. قال رسول الله ﷺ: (أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا فَإِنَّهُمْ لاَ يَمُوتُونَ فِيهَا وَلاَ يَحْيَوْنَ ..)[١]

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾(40)

---

١ صحيح مسلم ج1/ص172، مسند أحمد بن حنبل ج3/ص20

إسرائيل هو نبي الله يعقوب عليه السلام، وصيغة الخطاب (يا بني إسرائيل) من قبيل الترغيب، لحثّ اليهود على التأسّي بأبيهم العبد الصالح المطيع لله، ليكون ذلك مدعاة لأن يتذكّروا وصيّة أبيهم يعقوب عليه السلام ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة 133) وكذلك يذكّرهم الحقّ سبحانه بالنّعم العظيمة التي أنعم الله بها على أسلافهم القدماء حيث جعل منهم الأنبياء والرسل، ونجّاهم من عبودية آل فرعون، وأنزل عليهم المنّ والسلوى. ويظهر ذلك جليّاً في خطاب موسى عليه السلام لهم: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (المائدة 20)

والعهد في قوله تعالى ﴿وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم﴾ يتضمن طلب العبادة والطاعة وإتباع رسل الله، مقابل ذلك تكفير الذنوب والفوز بالثواب العظيم في الآخرة. ويظهر هذا المعنى في قوله سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ (المائدة 12)

﴿وإياي فارهبون﴾ ترهيب لبني إسرائيل من نقض العهد الذي أخذه الله عليهم، إن همْ عصوا الرسول محمد ﷺ وجحدوا برسالته، وعليهم أن يتذكروا عقاب الله لأسلافهم، وما أنزل بهم من أنواع العذاب، ليكون ذلك رادعاً لهم عن الغيّ والضلال.

وجاءت صيغة الترهيب (وإيّاي فارهبون) من غير ذكر العذاب، أبلغ في تحقيق المقصد، لأنّ العذاب والانتقام من آثار قدرة الله المطلقة، والتخويف من ذات الله أبلغ، وأوقع في النّفس، لأنّه سبحانه المالك للقدرة المطلقة الموجدة للأشياء. فاليهود الذين عاصروا رسالة محمّد ﷺ لم يعاصروا أو يشاهدوا صورة العذاب والانتقام الرباني التي حدثت لأسلافهم، لكنّهم الآن يعيشون في ظلال وحي الله، فالذي أهلك أسلافهم، هو ذاته الرقيب عليهم، القادر على تكرار العذاب عليهم كما أوقعه على أسلافهم.

﴿وآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾(41)

الخطاب هنا يتضمن دعوة اليهود للإيمان بالقرآن الذي أنزله الله على محمّد ﷺ ، وفيه تصديق لما عندهم من أصل الحقّ المنزّل على رسلهم. فليست رسالة محمّد ﷺ بدعاً من الرسل، وإنّما البدعة فيما أحدثوه من تغيير وتحريف لأصل التنزيل عندهم. فصاحب الحقّ يفرح حينما يجد من

يؤكد له صدق ما عنده من الحقّ، ويصحح له ما انحرف في منهجه، أمّا المخادعون فإنّه لا يهمّهم كم هو نصيب الحقّ في مواقفهم، بقدر ما يكسبوه لمصالحهم. ودعوة محمّد ﷺ كشفت عمّا تضمر اليهود من مقاصد، وأظهرت سرائر أحبارهم، ومكائد سادتهم، ليكون الصراع على أساس القيم والمبادئ المستندة إلى الحقّ الذي تضمنه الوحي الإلهي، بعيداً عن التحريف والتزييف.

﴿ولا تكونوا أوّل كافر به﴾ الخطاب موجّه إلى بني إسرائيل، أو إلى أهل الكتاب عامّة، وليس مطلق الكفرة، لأنّ كفّار قريش والعرب سبقوهم بذلك في العهد المكي.

﴿ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً وإيّاي فاتقون﴾ ثمّ ينهاهم عن المتاجرة بآيات الله، فالحق ملك لله وحده، وليس سلعة يُتاجَر بها للكسب والمنفعة، وسواء كان الثمن كثيراً أو قليلاً فآيات الله أعزّ وأجل من أن تكون سلعة للبيع.

ولفظ (قليلاً) أفاد استعداد أصحاب الأهواء للمتاجرة بالحقّ ولو بأبخس الأثمان، لأنّ مصالحهم أثمن وأغلى منه كما يرون. ومن هنا يتضح لنا الفارق بين أهل الإيمان من أتباع محمّد ﷺ الذين باعوا أنفسهم وأموالهم من أجل الحقّ ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ

وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (التوبة 111)

وبين جماعة من أهل الكتاب ممّن جعلوا ثمن الحقّ مرهونا بمصالحهم الخاصّة، فنقضوا ميثاق الله ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ (آل عمران 187)

﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴾ فيها تحذير من الله لمن اشترى بآيات الله ثمنا قليلا، فعليهم أن يتقوا بطش الله وعذابه.

﴿ولا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾(42)

نهاهم عن خلط الحقّ بالباطل، واللبس هنا الخلط ، ومنه قول علي بن أبي طالب ﵁ للحارث بن حوط: يا حارث (إنه ملبوس عليك، إن الحق لا يعرف بالرجال، اعرف الحق تعرف أهله)[1]

---

١ قواعد التحديث ج1/ص357، أقاويل الثقات ج1/ص222، تلبيس إبليس ج1/ص101

والخطاب هنا خاصّ باليهود، وعامّ لكلّ من فعل فعلتهم، واتصف بصفاتهم. وقد يكون اللبس (الخلط) الذي أحدثوه باتجاهين:

الأول: خلطوا بين أصل التوراة المنزل على موسى عليه السلام، وبين ما حرّفوه فيه، وما أدخلوا عليه من إضافات البشر.

الثاني: المراد به تغطية الحقّ بالباطل، كما نهاهم عن كتمان الحقّ وإخفاء معالمه، خصوصاً ما ورد في كتبهم من إخبار عن حقيقة رسالة محمّد ﷺ .

﴿وأنتم تعلمون﴾ لتوكيد خطورة فعلتهم، فقد يُعذر الجاهل لجهله، أمّا العالم بالشيء، والقاصد لفعله بعد العلم به وبآثاره، فهو الذي يتحمّل كامل تَبِعَةَ فعله، ووزر عمله.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (43)

دلّ الأمر هنا على الوجوب، وإقامة الصلاة أداؤها بواجباتها وأركانها. فعلى أهل الكتاب أن يُقيموا الصلاة التي أمر الله بها عباده، وأن يؤتوا زكاة أموالهم المفروضة عليهم لرسول الله ﷺ، وأن يركعوا مع الراكعين من أمّة محمّد ﷺ . وهذا كلّه لا يكون إلاّ بعد إيمانهم بالرسول ﷺ ودخولهم في دينه، لأنّ الإيمان والإسلام قاعدة قبول العمل، أمّا جميع ما ذُكر لا يُقبل فعله من غير المسلم المؤمن بالله ورسوله، ولا يُثاب عليه.

﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ (44)

استفهام توبيخي لأهل الكتاب وبالأخصّ اليهود، وتحذير عام لكلّ المصلحين من العلماء الدعاة إلى الله عزّ وجلّ، من أن يُخالف قولهم فعلهم، فيأمروا النّاس بالبرّ دون أنفسهم، فيتركوا فعل ما أمروا به النّاس. والأصل في خُلُق الدعاة إلى الله هو ما أخبر الباري عزّ وجل عن خلق نبيّه شعيب عليه السلام بقوله: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ (هود 88) ومن هنا فقد حذّر النبي ﷺ من هذه الصفة المقيتة فقال: (مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِىَ بي عَلَى قَوْمٍ تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضَ مِنْ نَارٍ قَالَ قُلْتُ مَنْ هَؤُلاَءِ قَالُوا خُطَبَاءُ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا كَانُوا يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ يَعْقِلُونَ)[١] وقال ﷺ : (يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى في النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ في النَّارِ ، فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِرَحَاهُ ، فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ

---

١ مسند أحمد بن حنبل ج3/ص120، شعب الإيمان ج4/ص250

النَّارِ عَلَيْهِ ، فَيَقُولُونَ أي فُلاَن، مَا شَأْنُكَ أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ، قَالَ كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلاَ آتِيهِ ، وَأَنْهَاكُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ) .[١]

وعن ابن عباس إنه جاءه رجل فقال له: يا ابن عباس إني أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، قال أبلغت ذلك؟ قال أرجو. قال إن لم تخش أن تفتضح بثلاث أحرف من كتاب الله فافعل، قال وما هن؟ قال قوله تعالى ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ (البقرة 44) أحكمت هذه؟ قال لا ، قال فالحرف الثاني قال قوله تعالى ﴿ياأَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُون، كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ (الصف 2،3) أحكمت هذه؟ قال لا، قال فالحرف الثالث قال قول العبد الصالح شعيب عليه السلام ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ..﴾ (هود 88) أحكمت هذه الآية؟ قال لا، قال فابدأ بنفسك.[٢]

وفي بيان مناسبة الآية يقول ابن عباس رضي الله عنهما: (كان يهود المدينة يقول الرجل منهم لصهره ولذي قرابته ولمن بينه وبينه رضاع من المسلمين اثبت على الذي أنت عليه وما يأمرك به هذا الرجل يريدون محمدا

---

١ صحيح البخاري ج3/ص1191

٢ تفسير ابن كثير ج1/ص87، شعب الإيمان ج6/ص89

ﷺ فإن أمره حق فكانوا يأمرون الناس بذلك ولا يفعلونه) وعن ابن عباس أيضا: (كان الأحبار يأمرون مقلديهم وأتباعهم بإتباع التوراة وكانوا يخالفونها في جحدهم صفة محمد ﷺ)[١]

ولاستحالة وجود ما يكفي لتحقيق مصلحة التغيير، فإنّ بعض العلماء لم يشترطوا في الداعية المسلم أو المحتسب فعل كلّ ما يأمر به ، مستأنسين ببعض الشواهد، منها ما ورد عن سعيد بن جبير قوله: (لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شيء ما أمر أحد بمعروف ولا نهى عن منكر)[٢]

ومن المحتمل أن يُحمل قول من يرى عدم اشتراط ذلك، عل كمال الأداء، وليس على الأداء، فالعمل بما يأمر به المرء دلالة على صدقه، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ (النساء 66) فقناعة المدعو بما يأمره به الداعية إلى الخير مناطة بمقدار التزام الآمر بأمره في فعله وسلوكه.

﴿أفلا تعقلون﴾ دلّت على ضرورة استخدام عقولهم لاكتشاف قبح فعلتهم في تغيير سمات وخصائص الآمرين بالمعروف والنّاهين عن المنكر.

---

١ تفسير القرطبي ج1/ص365

٢ تفسير ابن كثير ج1/ص86، تفسير القرطبي ج1/ص367، الذخيرة ج13/ص304

﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (45)

قرن هنا الحقّ سبحانه وتعالى الاستعانة بالصبر مع الصلاة، لأنّ الصبر يمنح المؤمن القدرة على تحمّل عبئ التكاليف الشرعيّة، كما تساعده الصلاة على الثبات والاستمرار عليها، وفي نفس الوقت تساعد أهل الطاعة على مقاومة المنكرات، وتحميهم - بعد عون الله - من الانزلاق فيها. قال تعالى: ﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ (45 العنكبوت) ولهذا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى.[1]

وروي أن ابن عباس نعي إليه أخوه وهو في سفر فاسترجع ثم تنحى عن الطريق فأناخ فصلى ركعتين أطال فيهما الجلوس ثم قام يمشي إلى راحلته وهو يقول[2] ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (البقرة45)

---

١ سنن أبي داود ج2/ص35، مسند أحمد بن حنبل ج5/ص388

٢ تفسير الطبري ج1/ص260، تفسير ابن كثير ج1/ص88، الاستذكار ج3/ص81

والمراد بالصلاة في الآية هي الصلاة الشرعيّة المعروفة، وأبلغها الفريضة، وقيل المقصود بالصلاة هنا الدعاء، لكنّ المعنى الأول أرجح، خصوصاً وأنّ الصلاة تتضمن الدعاء.

﴿ وإنها لكبيرة ﴾ الضمير يعود على الصلاة. وقد يكون الضمير عائدا على ذات الوصيّة (الاستعانة بالصبر والصلاة) ولفظ (كبيرة) دلّت على أنها ثقيلة على غير الخاشعين المتذللين لله. ولهذا كان رسول الله ﷺ يجد راحته في الصلاة فيقول لمؤذنه بلال: (يَا بِلاَلُ أَقِمِ الصَّلاَةَ أَرِحْنَا بِهَا)[1] بينما تكون ثقيلة على المنافق، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ (النساء 142)

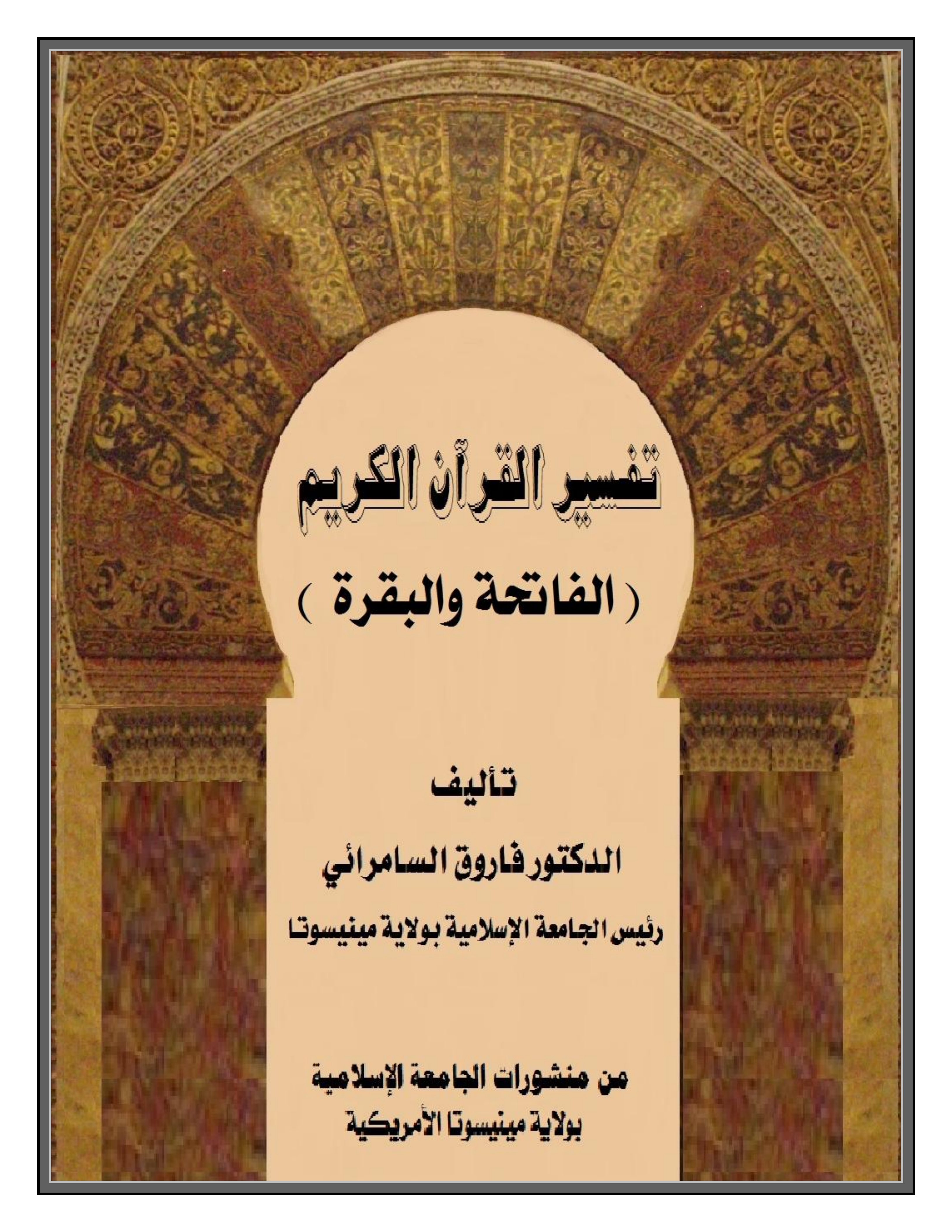
﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ (46)

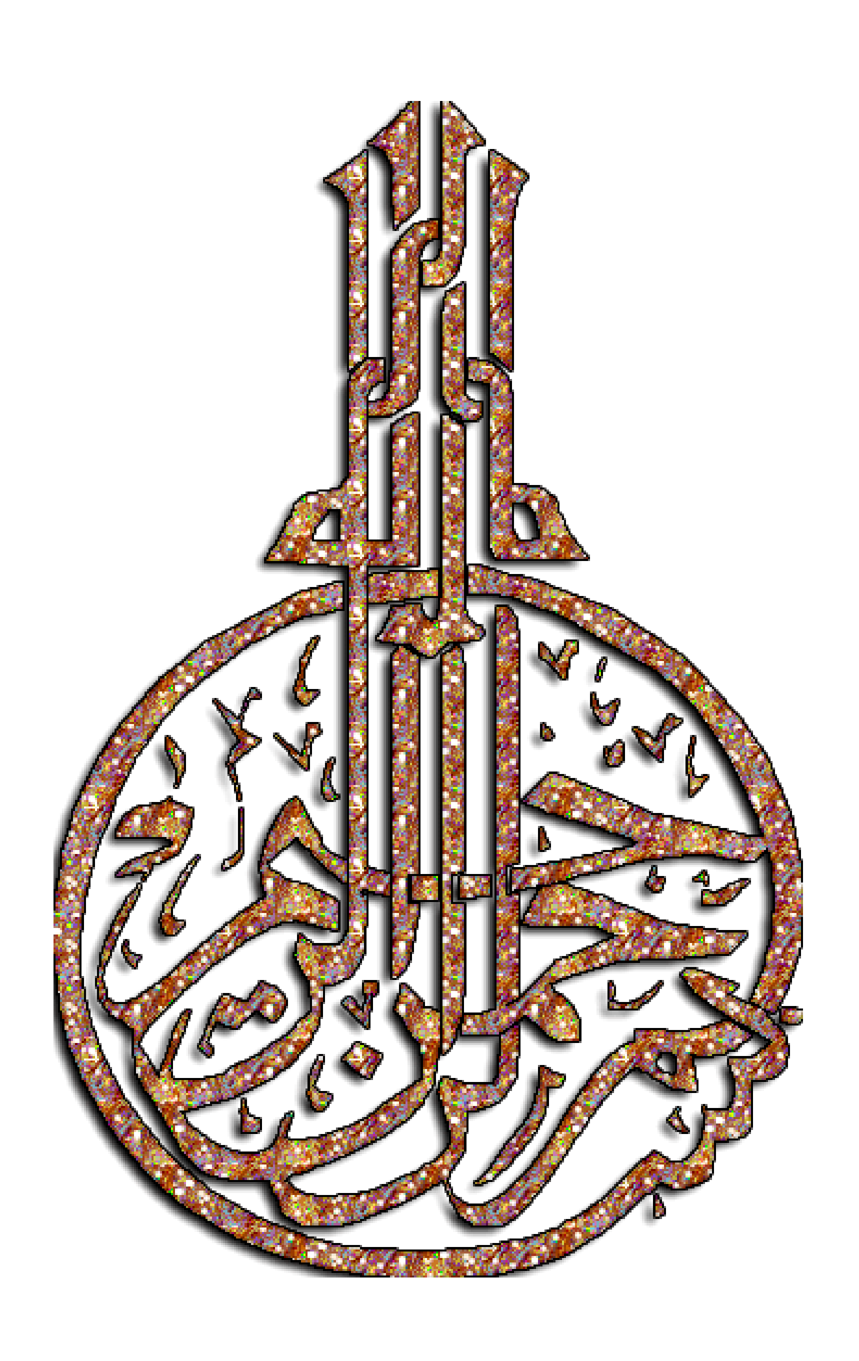
المعنيون بذلك هم الخاشعون، الذين يظنون (أي متيقنون) من لقاء الله يوم يلقونه بعد انتهاء رحلة الحياة. ولما أيقنوا بالمعاد والجزاء سهل الله عليهم فعل الطاعات وترك المنكرات.

---

١ سنن أبي داود ج4/ص296، المعجم الكبير ج6/ص277

والظنّ في الآية مفاده اليقين وليس الشك، وقد ورد الظنّ في مواطن كثيرة في القرآن الكريم وأفاد العلم بالشيء أو اليقين بوقوعه، قال تعالى: ﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ (الكهف 53) وقال تعالى عن حال المؤمنين عند فرحتهم عندما يأخذوا كتابهم بيمينهم: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ، إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ ﴾ (الحاقّة20،19) أي تيقنت.


تفسير القرآن الكريم
(الفاتحة والبقرة)
تأليف
الدكتور فاروق السامرائي
رئيس الجامعة الإسلامية بولاية مينيسوتا
من منشورات الجامعة الإسلامية
بولاية مينيسوتا الأمريكية



الجزء الرابع

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (47)

ثانية يرد الخطاب ﴿يا بني إسرائيل﴾ لتذكيرهم بنعم الله عليهم، خصوصاً وأنّها قد تنوعت وتباينت، وكان المخاطب بذلك هم اليهود الذين واجهوا دعوة النبي ﷺ وحاربوها، وتنكروا لما جاء في كتبهم من إخبار عنه ﷺ ، وكانت النعمة في الغالب قد أصابت أسلافهم قديماً بدليل قوله تعالى: ﴿ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ وقد كان ذلك من قبل، فتكريم الأجداد، هو تكريم للأحفاد، وتكريم الأصل هو تكريم لمن اتصل به وانتسب إليه.

أمّا من عاصر النبي محمد ﷺ من اليهود فأعظم نعمة نالوها هي إخبار الله لهم في كتبهم عن مجيء بعثة النبي ﷺ وما يثبت صدق رسالته، وكان الأولى أن يساعدهم ذلك على التصديق والإقرار دون شكّ أو ريب، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة 89)

وأفادت كلمة (اذكروا) في الخطاب، التنبيه والتذكير لأمر سابق كان لهم فيه فضل من الله ونعمة، وهي المعنيّة بقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (المائدة 20) فلمّا أزاغوا أزاغ الله قلوبهم. فكرامة الإنسان، من تكريمه العهد الذي أخذه الله على عباده. أمّا تفضيل بني إسرائيل على غيرهم من العالمين فله أوجه عدّة أذكر منها:

أولاً: هذا التفضيل كان على العالمين في زمانهم ، الذين عاصروهم، حيث كانوا يمثلون المختارة والمرشحة لمسيرة الاستخلاف في الأرض آنذاك، ولكلّ أمّة نصيب ممّا كسبت. ولا خلاف في أنّ أمّة محمد ﷺ خير أمم الأرض قاطبة حتّى قيام الساعة. وهي التي شرفها الله بتاج الخيريّة على الأمم، قال الحقّ سبحانه: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (آل عمران 110) وكذلك بشهادة الرسول الكريم محمد ﷺ التي قال فيها: (أَنْتُمْ تُوفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى)[١]

ثانياً: كان تفضيلهم مرهوناً بمدى صلتهم بمنهج الله، وصلاحيتهم في قيادة مسيرة الاستخلاف، لكنّهم عندما جحدوا نعمة الله عليهم،

---

١ مسند أحمد بن حنبل ج5/ص3، المستدرك على الصحيحين ج4/ص94

وعصوا رسل الله ، غضب الله عليهم، وجعل منهم القردة والخنازير وعبدة الطاغوت، وكتب عليهم الذلّة والمسكنة. قال تعالى في حقّهم : ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (البقرة 61) وقال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ (المائدة 60)

ثالثاً: إنّ هذا التفضيل حجّة على بني إسرائيل وليس لهم، فهو منحة إلهيّة منحت لهم ليغلق عليهم باب الذرائع التي قد يتحججون بها فيما إذا صرفوا أنفسهم عن طاعة الله، وعن القيام بمهام التكليف، فلمّا جحدوا بها، وقابلوا الفضل بالإساءة، والنعيم بالجحود، كانت عاقبتهم وخيمة ومخزية، وصورتها لم تتكرّر في مخزون التأريخ البشري.

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾(48)

أي : احذروا يوم القيامة، الذي لا يغني فيه أحد عن أحد، قال الحقّ سبحانه: ﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ (فاطر 18) وقال سبحانه: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ (لقمان 33)

ودلالة قوله تعالى: ﴿ وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي في ذلك اليوم العصيب لا يقبل الله من الكافرين الجاحدين شفاعة كي يُرفع عنهم العذاب ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ (المدثر 48) وقالوا: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ، وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ (الشعراء 100، 101) وكذلك لا يقبل منهم (عدل) أي: فدية، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (المائدة 36) وقال تعالى: ﴿ فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرِ﴾ (الحديد 15)

﴿ولا هم ينصرون﴾ أي ليس لهم نصير أو معين على تجاوز محنتهم، فلا يعطف عليهم أحد من أقربائهم أو أصدقائهم أو ممّن كانوا

أنصارا لهم في الدنيا ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ، فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلا نَاصِرٍ﴾ (الطارق 9، 10) بل وحالهم يوم القيامة خير دليل على سوء عاقبتهم وندمهم وخزيهم ﴿ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّين، هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ، احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ، مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ، وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ، مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ، بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُون﴾. (الصافات 20 - 26)

وفي الآية كذلك دلالة على أهميّة المسئولية الفردية في الإسلام، فلا تزر وازرة وزر أخرى، بل وكلّ إنسان ألزمه الله تبعية فعله، وعنه وحده يُسأل يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا، اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا، مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (الإسراء 13- 15) ممّا يجعل الإنسان في محكّ شديد للنظر في كلّ عمل أو فعل أو أداء، كي لا يكون فريسة آثاره المترتبة عليه من عقاب أو عذاب في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَاحَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ (الأنعام 31) وقال تعالى:

﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ (النحل 25) ومن هنا فإنّ الشعور بتبعيّة المسئولية الفردية أمام الله تدفع العبد إلى إصلاح الذات بداية، لتكون منطلقاً صالحاً للتغيّر والتغيير، ومن ثمّ القدوة الحسنة، الجديرة بالتأسي والإتباع لدى الآخرين، من الأهل والأصحاب.

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ (49)

آل فرعون هم أهل ملته وأعوانه وجنوده، وفرعون هو اسم لكلّ من مَلَكَ مصر آنذاك، وفي الآية تذكير لبني إسرائيل على عظيم نعم الله الكثيرة، ومنها نجاتهم من طغيان وجبروت فرعون، الذي أذاقهم سوء العذب، بذبح أولادهم، وترك نسائهم وبناتهم على قيد الحياة، وهذا هو من أسوأ ما نزل ببني إسرائيل، لما له من عاقبة اجتماعية وأسريّة وخيمة، وتهديد لوجودهم، ولمستقبل أجيالهم، وفي هذا العمل الإجرامي من جهة فرعون، بلاء واختبار عظيم لبني إسرائيل.

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آَلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾(50)

حادثة انفلاق البحر، ومن ثمّ نجاة بني إسرائيل[1]، نعمة أخرى من نعم الله التي شملتهم، فكان عليهم وعلى ذريّتهم من بعدهم أن يقدّروا الكرم الإلهي في تخليصهم من هذا البلاء، وذلك بمعجزة خارقة، نجّاهم الله بها من دون جهد أو عناء، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ، قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ، فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ، وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ، وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ، ثُمَّ أَغْرَقْنَا ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (الشعراء 61- 68)

وكان ذلك اليوم الذي نجّى به الله موسى عليه السلام ومن معه، مشهودا ومعظما عند بني إسرائيل، فعن عبد الله بن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: لَمَّا قَدِمَ النبي ﷺ الْمَدِينَةَ وَجَدَ الْيَهُودَ يَصُومُونَ عَاشُورَاءَ فَسُئِلُوا عن ذلك فَقَالُوا هذا الْيَوْمُ الذي أَظْفَرَ الله فيه مُوسَى وَبَنِي

---

[1] سأتناول تفصيلات معجزة انفلاق البحر في سورة الشعراء إن شاء الله تعالى.

إِسْرَائِيلَ على فِرْعَوْنَ وَنَحْنُ نَصُومُهُ تَعْظِيمًا له فقال رسول اللَّهِ ﷺ: نَحْنُ أَوْلَى بِمُوسَى مِنْكُمْ ثُمَّ أَمَرَ بِصَوْمِه.[١]

وكما أعاد الله تعالى إلى ذاكرة بني إسرائيل مشهداً من مشاهد العذاب يوم القيامة في الآية السابقة، فإنّه يُعيد إلى ذاكرتهم مشهداً من مشاهد النجاة، بقيادة نبيّ الله موسى عليه السلام، وبمعجزة عصاه، بعد كرم الله وتأييده، ليكون اليقين بالله أكبر، والثقة برسله أعظم، وليس لليهود من سبيل إلاّ إتباع رسالة محمد ﷺ ليكونوا في مظلة المعيّة الإلهية، فالذي أكرم موسى ومن تبعه من المؤمنين، هو نفسه الذي سيؤيد ويكرم رسوله محمد ﷺ وأتباعه المؤمنين.

وفي الآيتين السابقتين من سورة البقرة (49، 50) تأكيد على ضرورة تقوية العباد صلتهم بالله، لتدارك آثار العجز البشري، فما من محنة أو كربة يواجهها النّاس إلاّ ويكون أمر زوالها وانتهائها بيد من قدّرها وأجراها، وحتّى إذا عجز البشر ضمن قدراتهم وطاقاتهم عن تجاوز المحن، وإنهاء الشدائد، فإنّ قدرة الله المطلقة، هي التي تغيّر صورة الحدث ولو بخارقة ومعجزة يستحيل فعلها من قِبَل البشر، لتجري

---

١ صحيح البخاري ج3/ص1434، صحيح مسلم ج2/ص795

نواميس الله في نصرة من يشاء من عباده، ولو كانوا أذلّة أو مستضعفين أو مقهورين، فإرادته سبحانه وتعالى هي الغالبة ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ (القصص 5) فكيف نجمع بين التمكين والاستضعاف؟ ذلك أمر مستحيل في قوانين البشر، لكنّه ممكن في نواميس ربّ البشر، صاحب القُوى والقُدر ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (يس 82)

إنّ هذه العقيدة تمثّل القاعدة الأساسية لبناء أمّة الإيمان، فمهما عجز العبد عن تحقيق الأهداف، عليه أن لا يُفارقه اليقين بوعد الله في التمكين، ولا يهن ولا يحزن، لأنّه الأعلى بعقيدته، الشامخ بإيمانه ﴿وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران 139)

﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ (51)

كانت تلك الليالي موعدا للقاء موسى عليه السلام مع ربّه، وهذا الموعد ورد ذكره في سورة الأعراف ﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (الأعراف 142) وكان

هذا قد وقع بعد نجاة بني إسرائيل وغرق فرعون وجنوده. والعجيب في أمر القوم، أنّه كيف يُتصوّر من أمّة عاشت ظلال القدرة الإلهيّة الخارقة، أن ترى انفلاق البحر بضربة عصا، ليغرق أكبر جبروت في الأرض، فرعون وأعوانه وجنوده، أمّة تشاهد هول الحدث عيانا دون ريب أو شك، بل لم تلبث أقدامهم أن تجفّ من ماء البحر، ثمّ تنتكس بعده ، فتتخذ عجلاً له خوار، ليكون إلههم المختار، بديلاً عن الله الواحد القهّار. إنّها مفارقة هائلة في ميدان الاعتقاد، يعجز العقل السليم أن يتصوّر كنهها وحقيقتها.

لم تكن تلك الإساءة إلى الذات الإلهيّة بصورتها البشعة، لتصدر من جنس بشري سويّ. إنّهم ظالمون لأنفسهم باتخاذهم العجل ربّاً وإلهً ومعبودا، وظالمون لمن جاء بعدهم من ملتهم، بأن كانوا لهم قدوة سيئة منكرة. أمّة شانت في سلوكها، وانحرفت في عقيدتها، فساء مصيرها، وعظمت عقوبتها.

ولشدّة جرمهم فيما قدموا عليه من اتخاذهم العجل، تكرر ذكر موقفهم في القرآن الكريم في مواطن عدّة، قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ

التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة 54) وفي موطن آخر من السورة قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ (البقرة 92) وقال كذلك: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(البقرة 93) وفي سورة النساء قال تعالى: ﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَءَاتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ (النساء 153) وفي سورة الأعراف قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ (الأعراف 152) وقال كذلك:﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾(الأعراف 148) وأخيرا في سورة طه قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾(طه88) وسنتحدث عن قصّة العجل بالتفصيل في موطن قادم إن شاء الله.

﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾(52)

يا له من كرم إلهي!! بعد ذلك كلّه، يعفوا عمّن أساء إلى ذاته الإلهيّة، وإلى أنبيائه المكرمين، وإلى جنس الإنسانية. ألا يستحقّ الكريم الحليم، أن يتوجّهوا إليه بالشكر والحمد والثناء.

إنّنا نشكره سبحانه لأنّه الله ، نشكره لأنّه أهل للحمد وللثناء، سواء أعطى أو منع، الفقير يحمده على كلّ أحواله، والغني يشكره على جزيل عطائه. فما بالك بمن أغدق عليهم بنِعَمِهِ ظاهرة وباطنة. يكفينا نعمة واحدة من نِعَمه، أن هدانا للإيمان، لنكون عبيداً له، خاضعين لجلاله، متذللين لعظمته.

﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (53)

الكتاب هنا هو التوراة، والفرقان هو ما يفرق الله به بين الحقّ والباطل، إنّه وحي الله، مصدر الهداية والتوفيق، فبوجوده اتضحت الأهداف، وتميّزت المواقف، واتسعت الغايات.

وهذه المنحة الإلهية، كتاب الهداية، كانت بعد نجاة موسى عليه السلام وأتباعه من بني إسرائيل، من فرعون وجنوده، أي بعد حادثة

البحر، لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (القصص 43)

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُواْ إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (54)

خطاب نبي يعلم أسباب دمار الأمم، وعلل هلاكها، فيفتتح قوله (يا قوم) للتودد والتقرّب، عسى أن تلين القلوب بعد قسوتها، وتستيقظ الضمائر بعد سباتها.

وجاء شرط قبول التوبة عظيما، فلا تُقبل منهم حتّى يقتلوا أنفسهم، وذلك بأن يقتل الطائع منهم العاصي، ويقتل الوالد ولده، والولد والده، والأخ أخاه، والمرء قريبه، وهكذا، ليتناسب حجم العقاب مع حجم الجرم، فلمّا فعلوا ما أمروا به غفر الله للقاتل والمقتول. فعن ابن عباس ﷺ قال: أمر موسى قومه عن أمر ربه عز وجل أن يقتلوا أنفسهم قال: وأخبر الذين عبدوا العجل فجلسوا وقام الذين لم يعكفوا على العجل فأخذوا الخناجر بأيديهم وأصابتهم ظلمة شديدة فجعل يقتل بعضه بعضا لا يحنو رجل على قريب ولا بعيد، حتى انجلت الظلمة عنهم وقد جلوا

عن سبعين ألف قتيل كل من قتل منهم كان له توبة وكل من بقي كانت له توبة.[1] فذلك قوله ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

فإن كان قتل النفس شرطا لقبول التوبة، فإنّ ذلك أرحم لها من تركها في ظلال الشرك بالله، لأنّ عذاب الآخرة الواقع عليها بسبب شركها، أشدّ وأبقى.

وهذه المواقف تعبّر عن سلوكيات بني إسرائيل، حيث إنّ مواقفهم عكست جانبا من عقيدتهم، فبقدر ما تكون قضايا العقيدة راسخة في قلوب العباد، متمكنة في عقولهم، عميقة في صدورهم، يكون السلوك البشري صادقاً وسليما، لأنّ الإيمان بالله يشكّل مساحة كبيرة من صناعة المواقف، ومن مجريات الأحداث في حياة البشر.

لقد فوجئ نبي الله موسى بمواقف بني إسرائيل، أتباعه وأشياعه، ففي كلّ موطن وحدث ، كانت شخصيّتهم الغريبة الهجينة تعكس صورة مشوهة لا تليق بجيل الاستخلاف في الأرض، ولا تليق بأتباع الرسل، صورة الأمّة التي خذلت رسولها في كلّ وقت احتاجت دعوة الله إليهم، فكانت غاية عطائهم ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا

---

[1] تفسير الطبري ج1/ص286، تفسير ابن كثير ج1/ص93، الدر المنثور ج1/ص168

فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ) (المائدة 24) وهذا السلوك المعيب، كان بمجمله نتيجة حتميّة لخلل في الاعتقاد، وسوء في السريرة، فعلى الرغم من أنّ الله حباهم بنعمة الكتاب والفرقان، لكنّ ذلك لم يجد سبيلاً إلى حياتهم، ولا مسلكا إلى قلوبهم، لأنّها كانت كالحجارة أو أشدّ قسوة.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ (55)

بعد أن تاب الله على من عبدوا العجل من بني إسرائيل، رجعوا مرّة أخرى إلى طبيعتهم، العناد والمشاكسة، إنّهم يريدون أن يروا الله عيانا، ليس من قبيل الارتقاء في سلّم الإيمان، وإنّما لتعجيز موسى عليه السلام، ولصدّ النّاس عن إتبّاعه.

إنّهم يريدون إلها ماديّا مشاهدا، لأنّهم اعتادوا أن لا يؤمنوا إلاّ بالأمور الماديّة التي هي قوام حياتهم، وغاب عنهم أنّه سبحانه وتعالى ﴿لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الأنعام 103)

علما بأنّ طلب قوم موسى رؤية الله جهرة، مختلف عن طلب موسى النظر إلى وجه ربّه الكريم، حيث لم يكن طلبه شرط إيمان، وإنّما هو

ارتقاء في درجات الإيمان، وشتّان بين هذا وذاك، قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ، قَالَ لَن تَرَانِي وَلكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ موسَى صَعِقاً﴾ (الأعراف 143)

ومن لطف الله بموسى عليه السلام أن لا يمكنه من المشاهدة، لأنّ العجز البشري يحول دون ذلك، فالإنسان بتكوينه العضوي لا يتحمّل هذا الأمر، بل هو عاجز عنه، لأن الجبل بقوته وقساوته لم يستطع احتمال نور الله فجعله دكا، فإذا كان ذلك قد حدث للجبل فماذا كان يمكن أن يحدث بالنسبة لموسى عليه السلام. وكما قيل: (إذا كان موسى قد صعق برؤية المتجلَّى عليه، فكيف لو رأى المتجلِّي ذاته)؟

إذن لا بدّ أن ندرك طبيعة أولئك القوم، فهي غريبة في أطوارها، هجينة في سلوكها، لا تغيّرها الآيات والدلائل والمعجزات، ولا تصرفها عن جحودها ونكرانها كثرة نعم الله وعظيم عفوه وواسع مغفرته، إنّها النفوس التي لا تستقيم إلاّ تحت هول العقاب والتنكيل، إذا تُركت لتختار أهدى السبيلين، كان العِجل إلهها ومعبودها، وإذا خيّرت بين سبيل الرحمن وسبيل الشيطان، كان نصيب الشيطان منها أوفر.

شرط الإيمان لديهم رؤية الله جهرة، لا يفقهون أنّه تعالى لا تُدركه الأبصار، وهو يُدرك الأبصار. يريدون أن يرون الله جهرة وعيانا وعلنا، والله يريد أن يؤدبهم ليدركوا كيف يتعاملون مع خالقهم وبارئهم ، فأخذتهم الصاعقة (صيحة من السماء، أو نار منزلة عليهم) فأزهقت أرواحهم.

وهؤلاء هم الذين أخبر الله تعالى عنهم في سورة الأعراف بقوله: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ (الأعراف 155) وكان عددهم سبعين رجلاً كما نصّت عليه الآية، وهم خيرة بني إسرائيل ، ذهبوا مع موسى إلى طور سيناء لميقات وقته له ربه، كي يعتذروا إليه عمّا أحدثه قومهم من عبادة العجل، وإذا بهم يطلبون ذلك الطلب التعجيزي، فزادوا الطين بلّة، والأمر صعوبة.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (56)

ثمّ بعثهم الله إلى الحياة بعد موتهم وهلاكهم بالصيحة ، ليمنحهم فرصة العودة والتوبة، وهذا من كرمه وعظيم فضله عليهم لعلّهم يشكرونه، ويأتمرون بأوامره.

وقد يلتبس أمر موتهم وإحيائهم على النّاس، فالموت هو نهاية الأجل، فكيف يعودون بعد الموت إلى الحياة، ويستأنفون عيشهم؟

والإجابة على ذلك، هو أنّ آجالهم المقدرة لهم في حياتهم الدنيا لم تكن قد دنت وحانت، فكان الموت العاجل عقوبة لهم، ليذوقوا كأسه قبل موعده، أمّا الموت المرتبط بأجله ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (النحل 61) فإنّهم ملاقوه لا محالة، وشاربو كأسه ومرارته، ليجمع الله لهم في الموت مصيبتين، موت العقوبة وموت الأجل، والله تعالى أعلم.

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾(57)

الغمام هو السحاب الأبيض الذي يُظلل السماء، وسمّى غماما لأنّه يغمّ السماء ويسترها ويحجبها عن المشاهدة. وموطن النعمة في الغمام

المظلل على بني إسرائيل، كونه مظلة لهم تقيهم حرارة الشمس، وتخفف عنهم لهيب الصحراء.

و (المنّ) نوع من الحلوى كان يسقط عليهم سقوط الثلج، أشدّ بياضا من اللبن، وأحلى مذاقاً من العسل، وقيل: (هو كلّ ما امتن الله به على بني إسرائيل من طعام وشراب وغير ذلك مما ليس لهم فيه عمل ولا جهد) [1].

وجاء ذكر المنّ في حديث النبي ﷺ في قوله: (الْكَمْأَةُ من الْمَنِّ وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ) [2] قال مجاهد: (الْمَنُّ صَمْغَةٌ وَالسَّلْوَى الطَّيْرُ) [3] وقيل: السلوى طير سمين مثل الحمامة كان يأتيهم فيأخذون منه حاجتهم.

وظلم النفس في الآية ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ هو تعريضها لغضب الله وسخطه، بسبب الجحود والنكران لنعمه وفضله، لأنّ صيانة النعمة ودوامها من شكر الله عليها، قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ (إبراهيم 7)

---

١ أنظر: تفسير ابن كثير ج1/ص، 95، الدر المنثور ج1/ص171
٢ صحيح البخاري ج4/ص1627
٣ صحيح البخاري ج4/ص1627

إضافة إلى تعريضها لعذاب الله في الآخرة، قال تعالى: ﴿لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (المائدة 33)

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (58)

المراد بالقرية هنا بيت المقدس في أرض فلسطين، ميراث أبيهم إسرائيل، والأمر فيه رائحة الجهاد، لكنّه جهاد المدللين المنعمين ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ وورد ذكر القصّة بتفصيل أكثر في سورة المائدة (الآيات 21-26) وسنتحدث عنها بالتفصيل في موطنها هناك إن شاء الله تعالى.

والمقدسة : أي المطهرة، لما حباها الله من تكريم بأن تكون موطئاً وملاذاً وسكناً لكثير من الأنبياء والرسل، وكان لها مسك الختام من التشريف والتكريم، أن جعلها الله مستقرّاً لمسرى رسول الله محمد ﷺ ومنطلقاً لمعراجه إلى السماء.

والمراد بالسجود، إمّا أن يكون الركوع والانحناء، أو السجود الذي يمسّ فيه جبين الإنسان الأرض، وأيّا كانت الهيئة، فدلالتها الخشوع والخضوع لله تعالى.

والحطة: في الغالب أنّها كلمة أُمروا أن يقولوها، وأيّاً كان مرادها ، سواء طلب المغفرة أو التوبة لحطّ خطاياهم وذنوبهم، أو أنها مجرد رمز لأمر وطلب، فالمحكّ في الأمر، اختبار مدى طاعة القوم، وانقيادهم لأوامر الله. والغريب في هذا الطلب ﴿وقولوا حطّة﴾ أنّه تكليف ليس فيه أيّ مشقّة أو عناء، بل لا يتسع لأحد أن يعتذر عن النطق بكلمة مكونة من ثلاثة حروف (حطة) ، لكنّ مكمن الخطر لدى القوم هو اختلال أسس الإيمان في قلوبهم، وارتجاف قاعدة التصديق، وبالتالي الشكّ والريب في كلّ أمر أو طلب يأتيهم عن طريق موسى عليه السلام.

﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ هذا كلّه من فيض كرم الله عليهم، مغفرة للخطايا، ووعد بالزيادة من فضله وعطائه، مقابل أن يدخلوا الباب سجّدا ويقولوا (حطّة) ومع ذلك فقد خسروا كرامة الطاعة والعبوديّة لله، كما خسروا كرم المغفرة والعطاء.

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (59)

التبديل إمّا في ذات الكلمة، أي قالوا غيرها، أو في زيادة في متنها ولو بحرف واحد، فيتغيّر معناها كليّة، أو يكون بالتلاعب في المعاني لصرف دلالة الكلمة عن غاياتها ومقاصدها. وفي ذلك كلّه تعدّ على حدود الله تعالى، وتحايل على أوامره.

وقيل: بدل أن يقولوا (حطّة) قالوا (حنطة) كما ورد في بعض الروايات. وقد يبدو الأمر غريبا، كيف يُتصوّر حجم العذاب المترتب على زيادة حرف في اللفظ؟ كيف إذاً بمن بدّل وغيّر وحرّف بدين الله، وتلاعب بأحكامه، وصرف أوامر الله حسب هواه ومصلحته؟!.

إنّ المشكلة ليست في الحرف المزاد على متن الكلمة فحسب، بل فيما وراء ذلك من قصد ونيّة، وجرأة على معاندة الحقّ، ومشاكسة أوامر الله ونواهيه. إنّها البدعة في الدين، والأحدوثة على أمر الله. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ

إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (الحجرات 1) وقال رسول اللَّهِ ﷺ (من أَحْدَثَ في أَمْرِنَا هذا ما ليس فيه فَهُوَ رَدٌّ)[١] أي مردود على محدثه لأنّه تجاوز حدوده.

والمراد (بالرجس) العذاب، والفسق : الخروج عن طاعة الله.
للدلالة على وقوعه فيهم بسبب مخالفتهم أوامره.

﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (60)

﴿استسقى موسى لقومه﴾ أي طلب لهم الماء، فاستجاب الله له، وأمره أن يضرب بعصاه الحجر، ويتكرر مشهد الضرب بالعصا، بالأمس ضرب بها البحر، واليوم يضرب بها الحجر، وفي كلا الضربتين إيذان لوقوع المعجزة الإلهية، لتكون العصا ستارا لقدرة الله الخارقة، والمعجزة للبشر. وقد وقع حادث الاستسقاء ونزول المن والسلوى في زمن التَيْه الذي كتبه الله عليهم، وهم في تلك الصحراء الحارقة الموحشة.

---

١ صحيح البخاري ج2/ص959، صحيح مسلم ج3/ص1343

وهذه الينابيع التي تفجرت من الحجر كان عددها اثنتي عشرة عينا، وهي بعدد أسباط بني إسرائيل، وقيل أنّ المعني بالأسباط هم أولاد يعقوب عليه السلام، وقيل أحفاده. وقد ورد ذكرهم في مواطن أخرى من القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة 136).

﴿قد علم كلّ أناس مشربهم﴾ بعد أن تمّ تقسيمهم وتوزيعهم على عدد الأسباط والعيون المتفجرة بالماء.

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ ذلك من كرم الله، ومن فضله ومنّته على بني إسرائيل، فعليهم أن لا يُقابلوا تلك النعم بالفساد والإفساد، بل بالشكر الجزيل للمنعم، والعمل الصالح الذي فيه عمارة الأرض، وصلاح البشر.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَىَ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُواْ مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوْاْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ (61)

أي لن نصبر على طعام رتيب لا يتبدل ولا يتغيّر، وهو المنّ والسلوى، فهو واحد بتكراره وإن تعددت أصنافه. وهذا المشهد يكشف عن صفاقة نفوسهم، وغرابة طبيعتهم، فقد ندر وجود أشباههم في جنس البشر من غيرهم من الأقوام، إنّهم اليهود الذين أعجزوا نبي الله موسى، وخذلوه في مواطن كثيرة. ومن أجيالهم من سيحمل ذات الصفات، التي بها سيواجهون دعوة النبي محمد ﷺ ويغدروا به وبأصحابه، فلا يرعون في مؤمن إلاّ ولا ذمّة. وبنفس الصفات سيتكررون عبر الزمان، وسيكون لأصحاب الحقّ معهم مسيرة شاقّة، وصراع لا ينتهي.

لقد أكرمهم الله بخير طعام منزل من السماء، وبحلوى لا نظير لمذاقها في زمانهم، لكنّ ذلك كلّه لم يُشبع رغباتهم، ولم يرُق لمذاقهم، أكرمهم الله بخير طعام بعد أن نفذ عندهم كلّ طعام، وعندها ينكشف الستار عن حقيقة الأنفس المريضة في طبيعتها، الخبيثة في مقاصدها وغاياتها، التي ترغب العناد لذات العناد، والمشاكسة لأجل المشاكسة، فما قدّر القوم الله حقّ قدره، وما شكروا نعمته حقّ شكرها.

وبأسلوب غريب مُنكَر ﴿ادع لنا ربّك﴾ !! لم يقولوا : ادع لنا ربّنا، فالهوّة شاسعة بينهم وبين ربّهم، فليس من علاقة تربطهم به، سوى شعورهم بأنّهم أصحاب منّة عليه وعلى نبيه موسى، فطلبهم جاء بأسلوب المستخفّ المستهتر، لن يصبروا على طعام واحد، ليستعجلوا غضب الجبّار وبطشه، عشقوا الأدنى لدنوّهم، ورغبوا الوضيع من الطعام لوضاعتهم، اختار الله لهم الذي هو خير، فما احترموا اختياره، وما حمدوا نعمته. إنّها مفارقة في موازين الأخلاق التي لم يعرف القوم لها طريقا، ولم يهتدوا إليها سبيلاً.

ومعنى ﴿من فومها﴾ قيل هي الحنطة والخبز، وقيل هو الثوم، وأيّا كان المعنى، فالمهمّ أنّهم طلبوا الأدنى.

﴿اهْبِطُواْ مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ قيل (مصرا) المراد منها مصر فرعون، وقيل: أيّ مصر (بلدة) تدخلونها ففيها ما سألتم، من غير تحديد.

وباعتبار دلالة أنّها مصر فرعون، فيكون أمر الله لهم بأن يهبطوا من موقع التكريم، وكرامة اختيار الله، إلى دنوّ اختيارهم، ووضاعة رغبتهم، لقد اخترتم الذي هو أدنى، فلأجل حصولكم على ما أردتم، اهبطوا أرض مصر، أرض فرعون الذي سامكم فيها سوء العذاب، أرض عذابكم ودماركم، أرض فومكم وبصلكم وقثّاكم وعدسكم.

إنّها الذلّة والمسكنة، ومن ثمّ الغضب الرباني الذي وقع عليهم بعد أن استحقوه، فباءوا به، ليعكس العقاب الذي أصابهم بسبب أفعالهم، فهم الذين قتلوا الأنبياء بغير حق، واعتدوا على عباد الله الصالحين، وتجاوزا أحكامه، وعصوا أوامره، فالجزاء من جنس العمل، وما ربّك بظلاّم للعبيد.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآَخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (62)

قيل أنّ الآية نزلت في أصحاب سلمان الفارسي ﷺ عندما كان سلمان يحدّث النبي ﷺ عن أصحابه من أهل الكتاب، فأخبره خبرهم بقوله: كانوا يصلون ويصومون ويؤمنون بك ويشهدون أنك ستبعث نبيا فلما فرغ سلمان من ثنائه عليهم أخبره النبي ﷺ بأنّهم من أهل النّار. فاشتد ذلك على سلمان فأنزل الله هذه الآية.[١]

وهذه الآية تشمل أتْباع رسول الله ﷺ من المسلمين، وكذلك تشمل كلّ من آمن من اليهود والنصارى من أهل الكتاب برسلهم زمن صلاحية رسالاتهم، فصلاحية رسالة موسى عليه السلام امتدت حتّى مجيء رسالة عيسى عليه السلام، فمن تمسك بالتوراة وسنّة موسى زمن صلاحية الرسالة كان من الناجين، فلمّا جاء عيسى عليه السلام لا يسع وقتها لأيّ يهودي إلاّ إتباع عيسى عليه السلام، ولو بقي على ما كان عليه لكان من الهالكين، وهكذا في النصارى بالنسبة لدعوة محمد ﷺ

---

١ أنظر: تفسير الطبري ج1/ص323، تفسير ابن كثير ج1/ص104

فصلاحية رسالة عيسى عليه السلام امتدت حتّى مجيء رسالة محمد ﷺ ، فلمّا كان عهد رسول الله ﷺ لا يتسع لأحد من النصارى المسيحيين ولا لمن كان قبلهم من أصحاب الديانات السماوية إلاّ إتباع النبي محمد ﷺ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ، كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِين، أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ، خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنْظَرُون، إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (آل عمران 85-89) لأنّ رسالة محمّد ﷺ هي الخاتمة، وهي الحجّة الأخيرة على البشر حتّى تقوم الساعة، ولو كان عيسى أو موسى من أهل زمان محمد ﷺ ما وسعه إلاّ إتباعه، وفي ذلك يقول النبي ﷺ: (لاَ تَسْأَلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ عَنْ شَىْءٍ فَإِنَّهُمْ لَنْ يَهْدُوكُمْ وَقَدْ ضَلُّوا فَإِنَّكُمْ إِمَّا أَنْ تُصَدِّقُوا بِبَاطِلٍ أَوْ تُكَذِّبُوا بِحَقٍّ فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ مَا حَلَّ لَهُ إِلاَّ أَنْ يَتَّبِعَنِى)[1]

وعَنْ عِكْرِمَةَ قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرِ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْه﴾. قَالَتِ الْيَهُودُ : فَنَحْنُ مُسْلِمُونَ. قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : فَأَخْصَمَهُمْ

---

١ مسند أحمد بن حنبل ج3/ص338

بِحُجَّتِهِمْ يَعْنِى فَقَالَ لَهُمُ النَّبِىُّ ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ حَجَّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً فَقَالُوا : لَمْ يُكْتَبْ عَلَيْنَا وَأَبَوْا أَنْ يَحُجُّوا). قَالَ اللَّهُ ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ قَالَ عِكْرِمَةُ : وَمَنْ كَفَرَ مِنْ أَهْلِ الْمِلَلِ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ.[1]

وفي هذا المعنى ردّ على كلّ من ادعى بأنّ أهل الديانات السابقة لو تمسكوا بأصل رسالتهم، وعملوا بأحكام أنبيائهم في أيّ زمان لكانوا من الناجين مستدلين بظاهر الآية، وهذا خطأ جسيم، فدلالة الآية لم تكن كذلك، فما كان الله ليرضى من أحد على وجه الأرض أن يبقى على دينه بعد إقراره سبحانه بصلاحية دين محمد ﷺ حتى تقوم الساعة، خصوصاً وأنّ رسالته عليه الصلاة والسلام جاءت ناسخة لصلاحيّة جميع الرسالات التي سبقته.

وأما الصابئين فقد اختلف العلماء في تعريفهم، ووردت أقوال كثيرة في شأنهم، ومن بينها، أنّهم قوم بين المجوس واليهود والنصارى، ليس لهم دين محدد، ولا رسول مرسل. وقيل هم فرقة من أهل الكتاب يقرءون الزبور، ولهذا يرى الإمام أبو حنيفة أنّه لا بأس من أكل

---

١ سنن البيهقي الكبرى ج4/ص324، أخبار مكة للفاكهي ج1/ص374

ذبائحهم وزواج نسائهم. وقيل هم قوم مما يلي العراق ، يؤمنون بالنبيين كلهم ويصومون من كل سنة ثلاثين يوما ويصلون إلى اليمن كل يوم خمس صلوات. وسئل وهب بن منبه عن الصابئين فقال: الذي يعرف الله وحده وليست له شريعة يعمل بها ولم يحدث كفرا. وقال بعض العلماء الصابئون الذين لم تبلغهم دعوة نبي.[1]

وأظهر الأقوال وأصحّها ما رجّحه الإمام ابن كثير بأنّهم : قوم ليسوا على دين اليهود ولا النصارى ولا المجوس ولا المشركين وإنما هم قوم باقون على فطرتهم ولا دين مقرر لهم يتبعونه ويقتفونه. ولهذا كان المشركون يصفون من أسلم بالصابئ أي أنه قد خرج عن سائر أديان أهل الأرض إذ ذاك.[2] والله تعالى أعلم.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (63)

ومرّة أخرى يذكرهم الله بنعمته عليهم، وعفوه عنهم. والغريب في طبيعة القوم، أنّ قضايا الإيمان لم تجد إلى قلوبهم سبيلا إلاّ عندما

---

١ أنظر: تفسير ابن كثير ج1/ص105، تفسير ابن أبي حاتم ج4/ص1176، الرد على المنطقيين ج1/ص456

٢ أنظر: تفسير ابن كثير ج1/ص105

تسندها خارقة أو معجزة، أمّا المعاني الجليلة التي تضمنها الوحي الإلهي، لم تؤثّر فيهم، أو تغمر قلوبهم، وحتّى بوجود الخوارق والمعجزات، فإنّ إيمانهم بآيات الله كان يمازجه الريب والشك، وسرعان ما ينتكسوا على أعقابهم، ولهذا فإنّ أخذ العهود والمواثيق عليهم، كانت تتمّ في أجواء مناسبة لطبيعتهم القاسية، وخصالهم الرديّة. فما علاقة رفع الجبل فوق رؤوسهم بأخذ العهد والكتاب؟

لمن يكن من حدث عظيم يؤثّر في القلوب المتحجرة، ليرفع من درجة استعدادها لتلقي وحي الله، غير رفع الجبل فوق رؤوسهم، فالمشهد يخلع القلوب من أماكنها لتبلغ الحناجر، ويهزّ الأفئدة من قواعدها لتنبض فيها مشاعر الإيمان. في هذه اللحظات فقط، وليس في غيرها ﴿خذوا ما آتيناكم بقوّة﴾

والطور هو الجبل ، لقوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (الأعراف 171)

والمراد بقوله: ﴿خذوا ما آتيناكم بقوة﴾ يعني التمسك الشديد بكتاب التوراة، مع قوّة العمل بأحكامه وتعاليمه.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ لأنّ التقوى لا تحصل إلاّ بإتباع الرسل ، وبتعاليم الوحي الإلهي.

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (64)

بعد هذا كلّه، يتولّى القوم، وبعد هذا كلّه يعفوا الله عنهم ليمنحهم فرصة أخرى. إنّها الرحمة الإلهيّة الغامرة، التي تمنح العباد فرصة التوبة والعودة. وصدق الله وهو القائل: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (النحل 61)

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ (65)

ويذكرهم الله مرّة أخرى باعتداء أسلافهم على حرمات الله في حادثة السبت، والخطاب هنا فيه ترهيب من الله لليهود الذين عاصروا النبي ﷺ، وتذكيرهم بغضب الله العظيم الذي حلّ بأجدادهم الأوائل من أصحاب القرية الذين خالفوا أمر ربّهم، وتحايلوا على أحكامه، فمسخهم الله إلى

قردة منبوذين. وبطبيعة الحال لم يشمل المسخ جميع اليهود، وإنّما بعضهم من أصحاب القرية الذين عصوا أوامر الله.

وهذه الحادثة ورد ذكرها في خمسة مواطن في القرآن الكريم، أظهرها في سورة الأعراف، في قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُون ﴾(الأعراف 163) وسيأتي ذكرها مفصلاً في موطنها هناك إن شاء الله تعالى.

﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (66)

الإشارة هنا إلى ما حلّ بأهل القرية من انتقام وعذاب، جعلهم الله عبرة لمن عاصرهم من بني إسرائيل من سكان القرى الأخرى، ولمن جاء بعدهم، ممّن تسوّل لهم أنفسهم ركوب المعاصي، ومشاكسة أوامر الحقّ تبارك وتعالى، وفي نفس الوقت هي تذكرة لمن يتقي الله، ويخشى عذابة.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (67)

تسمية سورة (البقرة) بهذا الاسم ، سببه ورود قصّة بقرة بني إسرائيل فيها، خصوصا وأنّها ذكرت مفصلة على خلاف الأحداث الأخرى التي سبقتها ، والمتصلة بممارسات بني إسرائيل.

وهنا يذكّرهم الله بقصّة البقرة، وسبب ذبحها، وحادثة القتل التي وقعت فيهم، ومن ثمّ تدافعهم واختلافهم في أمر القاتل. وقصّة البقرة وردت في كتب التفسير بروايات عدّة، وجميعها تصبّ في اتجاه واحد، هي جريمة قتل، شاء الله أن يكشف فيها القاتل ليمنع شرّا كبيرا كاد أن يقع بين بني إسرائيل. ونذكرها هنا كما يرويها الإمام ابن كثير من بين ما ذكر عنها من روايات، فيقول: (وقصّة البقرة هو أنّه كان رجل من بني إسرائيل عقيما لا يولد له وكان له مال كثير وكان ابن أخيه وارثه فقتله ثم احتمله ليلا فوضعه على باب رجل منهم ثم أصبح يدعيه عليهم حتى تسلحوا وركب بعضهم على بعض. فقال ذوو الرأي منهم والنهي: علام يقتل بعضكم بعضا وهذا رسول الله فيكم؟ فأتوا موسى عليه السلام فذكروا ذلك له فقال ﴿إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين﴾ قال: فلو لم يعترضوا لأجزأت

عنهم أدنى بقرة ولكنهم شددوا فشدد عليهم حتى انتهوا إلى البقرة التي أمروا بذبحها فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها فقال والله لا أنقصها من ملء جلدها ذهبا فأخذوها فذبحوها فضربوه ببعضها فقام فقالوا من قتلك؟ فقال: هذا - لابن أخيه- ثم مال ميتا فلم يعط من ماله شيئا ولم يورث قاتل بعد)[1]

إنّ من الواجب على أتباع الأنبياء والرسل إذا جاءهم أمر أو نهي أن يقولوا (سمعنا وأطعنا) من غير جدال أو مراء أو التواء. قال لهم موسى عليه السلام: ﴿إنّ الله يأمركم أن تذبحوا بقرة﴾ فلو بادروا بداية إلى تلبية الأمر لسهل عليهم، ولو ذبحوا أيّ بقرة دون تحديد لأوصافها أجزأتهم، ولكان أمرها يسيرا، لكنّهم أبو إلاّ الاعتراض كعادتهم، فقالوا: ﴿أتتخذنا هزوا﴾ فقال لهم موسى عليه السلام: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ فكيف لنبي مرسل من عند الله يستهزئ بقومه وأتباعه، خصوصاً وأنّ للأمر قدسية عظيمة كونه من عند الله ﴿إنّ الله يأمركم﴾. فليس الأمر من اجتهاد موسى دون وحي الله، إنّه من عند الله، الخبير بأحوال عباده، العليم بمقاصدهم ونيّاتهم.

---

١ تفسير ابن كثير ج1/ص109

وهنا التبس عليهم الأمر: ما علاقة القتيل بذبح بقرة؟ وبأيّ منطق يمكن للقوم أن يبلغوا كمال اليقين بطلب موسى؟ إنّها صورة من صور الاختبار والابتلاء لصدق الإيمان في قلوب العباد.

كم من قضيّة تواجهنا في أوامر الله ونواهيه لا ندرك كنهها وأسبابها، فهل استجابتنا وتلبيتنا لها تتوقف على معرفتنا لأسبابها وعللها؟ إنّ العقل البشري ليعجز في كثير من الأحيان عن إدراك أسباب قدر الله وقضائه، ولا يسعنا نحن المؤمنون إلاّ التسليم المطلق لأمره وقضائه، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِينًا﴾ (الأحزاب 36) لعلمنا أنّ الخير هو فيما يختاره الله لنا لا فيما نختاره لأنفسنا.

وهكذا شدّد بنوا إسرائيل على أنفسهم فشدّد الله عليهم، لأنّه من يسّر على نفسه يسّر الله عليه، فدين الله يسر كما أخبر النبي ﷺ بقوله: (إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلاَّ غَلَبَهُ ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا ..)[١]

---

١ صحيح البخاري ج1/ص23

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا فَارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُون ﴾ (68)

سلسلة من المطالب، وبأسلوب هجين لا يتناسب مع الأدب بحضرة المولى جلّ جلاله، ومرّة أخرى ﴿ادع لنا ربّك﴾ وقالوها من قبل ﴿اذهب أنت وربّك ﴾ فكأنّه ربّ موسى وحده، لا ربّ بني إسرائيل.

يا لها من وقاحة، ويا لها من جرأة، ويا له من سوء أدب!! إنّنا نتشرّف بأن نكون عبيدا لله، خاضعين لأمره، مقرّين بجلالة قدره. ركوعنا وسجودنا له شرف لنا. عجبنا من أمر القوم أنّهم لا يكادون يفقهون حديثا، بل وما قدروا الله حقّ قدره. إنّهم يسألون بفضول ممقوت، عن ماهيّة البقرة، فمن طلب منهم ذلك أصلاً؟

وهنا بدأت المطالب الربانيّة تضيّق عليهم الخناق، فالجزاء من جنس العمل، شدّدوا على أنفسهم فشدّد الله عليهم. ﴿قال إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا فَارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ والفارض : الهرمة الكبيرة في العمر، والبكر: الصغيرة الباكر، عوان بين ذلك: أي متوسطة بين الصنفين، لا كبيرة ولا صغيرة.

﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ أي يكفيكم ذلك ، فافعلوا ما تؤمرون به، ولا تتوسعوا في السؤال، فتتوسع عليكم المطالب.

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴾ (69)

ومرّة أخرى ﴿ادع لنا ربّك﴾ !! ليسألوا عن لونها، فيأتيهم الجواب ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ أي شديدة الصفرة مع صفاء اللون. يتمتع من يشاهدها لحسنها وجمالها. والغريب أنّ هذا اللون يندر وجوده في صنف البقر، وهذا من باب التشديد عليهم.

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾ (70)

يعتذرون لمطلبهم هذا ﴿ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ ويؤكدون عزمهم على الفعل ﴿ وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾.

﴿قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّـهَا بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ (71)

أوصاف أخرى تزيد الأمر تعقيدا، والقوم حيرة، والأداء صعوبة.
﴿إِنَّـهَا بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ أي ليست مذللة بالحراثة، ولا معدّة للسقي ﴿ مُسَلَّمَةٌ لا شِيَةَ فِيهَا﴾ لا عيب فيها، وخالية من أيّ لون آخر يكدّر لونـها الأصفر.

﴿قَالُوا الآَنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ بعد ذلك كلّه، الآن جئت بالحقّ، وكأنّه قبل ذلك لم يكن قد أتى به.

﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ لأنّـهم في أسئلتهم وعنادهم كانوا يحاولون عدم الفعل، فما كادوا يذبحون البقرة، فأسئلتهم ليست من قبيل الاستفسار والاستيضاح، وإنّما هي قبيل الاستخفاف بأمر الله، والنكوص عن طاعته.

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ (72)

وهنا ينكشف الغطاء عن مقصد الحقّ في طلبه من القوم لأن يذبحوا بقرة، لتنجلي الغمامة عن عيون بني إسرائيل، وليعلموا أنّ الأمر لم يكن هزوا ولا لعبا، إنّما هو ستار لقَدَرِ الله. فذَبْح البقرة مقدمة لانجلاء الحيرة في أمر القاتل، وعلامة لبيان الحقّ الذي كانوا فيه يتنازعون.

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ أي اختلفتم وتنازعتم وتدافعتم.

﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ فما من شيء يخفى عليه، فهو الذي يعلم السرّ وأخفى، ولا يكشف حجاب السرّ بعد كتمه إلاّ الله، القادر على كلّ شيء.

﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾(73)

أي اضربوا القتيل الميت بأجزاء من البقرة التي ذبحوها، أو بعضو منها، فضربوه بلحم فخذها كما قيل، فلمّا فعلوا ذلك، بعث الله الحياة في جسد القتيل، فأخبرهم بالقاتل الحقيقي، ثمّ عاد ثانية إلى الموت، ليستأنف حياة البرزخ.

وهذه الصورة تحكي جانباً من قدرة الله المطلقة على إعادة الحياة في الموتى يوم القيامة، وهي آية من آياته جلّ وعلا، لعلّ ذلك يكون مدعاة للقوم لأن يعقلوا ويتعظوا، ويحسبوا ليوم القيامة حسابا.

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (74)

تعني القسوة هنا: الصلابة والشدّة واليبس. فقلوب القوم كانت خاوية من الإنابة والإذعان لآيات الله تعالى، خصوصاً بعدما أراهم الله المعجزات وخوارق العادات. فالأصل أنّ الإنسان يقف منبهراً متعظاً أمام المعجزة، وعاجزاً ضعيفاً رقيق القلب أمام المُعْجِز.

﴿ثمّ قست قلوبكم﴾ إشارة إلى حدوث ذلك بعد مشاهدة الآيات، والأصل فيها أن تلين وترقّ، فدلّ ذلك على خطورة الحالة في بني إسرائيل، حيث كشف الباري عزّ وجلّ عن سمات تلك القلوب، وأنّ استعدادها للقسوة أقرب، فهي كالحجارة أو أشدّ قسوة. وبلاغة التشبيه

بالحجارة دون غيرها، لأن غيرها كالحديد أو الرصاص فيه صلادة ، للئقه إذا أذيب في النار ذاب، بخلاف الأحجار.

وعن دلالة (أو) في قوله تعالى: ﴿فهي كالحجارة أو أشدّ قسوة﴾ قيل هي بمعنى (أو) الواردة في قوله تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ (الإنسان 24) وعلى هذا فمنهم من كان قلبه كالحجارة، وآخرون أشدّ قسوة منها، فمراتب القوم في الإنكار لآيات الله والجحود بها، بين الحجارة والأشدّ قسوة.

وقيل: هي بمعنى (بل) التوكيدية، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ (الصافات 174) والمعنى بل يزيدون.[١] فتكون الدلالة توكيدا، فهي كالحجارة، بل وأشدّ قسوة منها.

ووجه الشبه بين القلوب والحجارة هي القسوة، لكن الحجارة على قسوتها تفجّر منها الأنهار، وخرج منها الماء، أو هبطت من خشية الله، أمّا قلوب بني إسرائيل فإنّ أنهار الخير أبَت أن تتفجّر من خلالها، وامتنع ماء الفضيلة والطهارة أن يخرج منها، وحال الجحود بينهم وبين

---

١ أنظر: تفسير القرطبي ج1/ص463

قلوبهم، فلم تهوي راكعة وساجدة لجلال الله ، تعبيرا عن شكرها لنعمه وأفضاله.

ومن الناحية التربويّة فقد دلّت الآية على جانب هام من البناء العقدي التربوي داخل ميدان القلب، الذي تتحرّك بمقتضاه المشاعر والأحاسيس والجوارح. فالتغيّرات في قلوب البشر رهينة التأثير بما يشاهده الإنسان أو يعقله أو يتحسسه، ليعيش القلب مداه بين اللّين والقسوة، بين طراوة الإيمان، وقسوة الجحود والنكران.

كيف يمكن لمن تحجّر قلبه أن يتسع صدره للآخرين كي يعفو ويصفح، ويتجاوز عن أخطائهم؟ كيف يتخلّص من شوائب الباطل ليسمو في صفاء الحقّ؟ ومن هنا يلزم المؤمن أن يأخذ بأسباب لين القلب وطراوته، ليكون أقرب إلى التأثّر بآيات الله، ثمّ التأثير في الغير، وأن يتحاشى أسباب قسوة القلب، كي لا تحول بينه وبين شفافيّة الإيمان التي يُقرّ من خلالها العبد بالقدرة المطلقة لله تعالى، والعجز والضعف للبشر.

ولهذا نهى الباري عزّ وجل المؤمنين عن التشبّه بأهل الكتاب في مثل ذلك، فقال: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (الحديد 16). وحذّر النّبي ﷺ من قسوة

القلب، بعد أن أشار بيده نحو بلاد اليمن، فقال: (الإِيمَانُ يَمَانٍ هَا هُنَا أَلا إِنَّ الْقَسْوَةَ وَغِلَظَ الْقُلُوبِ فِي الْفَدَّادِينَ -الرعاة والجمّالون- عِنْدَ أُصُولِ أَذْنَابِ الإِبِلِ حَيْثُ يَطْلُعُ قَرْنَا الشَّيْطَانِ فِي رَبِيعَةَ وَمُضَرَ).[١] وقالﷺ : (لا تُكْثِرُوا الْكَلامَ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللَّهِ فَإِنَّ كَثْرَةَ الْكَلامِ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللَّهِ قَسْوَةٌ لِلْقَلْبِ وَإِنَّ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنَ اللَّهِ الْقَلْبُ القاسي)[٢] وعن أبي هريرة ﷺ أنّ رجلاً: شَكَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَسْوَةَ قَلْبِهِ فَقَالَ: امْسَحْ رَأْسَ الْيَتِيمِ وَأَطْعِمِ الْمِسْكِينَ.)[٣] ولين القلب يسمح لصاحبه أن يعيش المتغيّرات، وأن يتّسع صدره للآخرين وإن خالفوه، ليعفو ويصفح.

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُون ﴾ (75)

الخطاب في الآية موجّه لأصحاب النّبي ﷺ حيث حرص الأنصار على إسلام اليهود بسبب الحلف والجوار الذي كان بينهم. وليس المقصد من الخطاب تثبيط الهمم في مواصلة دعوة أهل الكتاب من اليهود، وإنّما كشف الستار عن الخصال والسمات التي عاشها أسلافهم،

---

١ رواه البخاري في كتاب بدء الخلق، رقم 3126 ، ورواه مسلم في كتاب الإيمان، رقم 72

٢ رواه الترمذي من حديث ابن عمر، رقم (2335)

٣ رواه أحمد في المسند, كتاب باقي مسند المكثرين, حديث رقم 8657

ثمّ امتدّت في أخلافهم، ليكون هذا الإخبار من الله بمثابة كشّاف يُمكّن الجماعة المؤمنة لأن تحدّد العلاقات مع اليهود بالقدر الذي يتناسب مع سماتهم وخصائصهم، كي لا تصل الجماعة المؤمنة إلى مرحلة الرغبة والطمع في إيمان اليهود، خصوصاً أولئك الذين لا يستحقّون مثل هذا التكريم منهم.

كيف ينقاد اليهود للجماعة المؤمنة وهم الذين أتعبوا أنبياء الله بعد أن جاءوهم بالآيات والمعجزات، فجحدوا بها، ثمّ قست قلوبهم، وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما فهموه وعقلوه ، ليخالفوا الأصل الذي أُنزل عليهم في التوراة وهم يعلمونه.

وقد يكون المعني بالفريق هم العلماء من بني إسرائيل ، لأنّهم أقدر على فهم كلام الله من غيرهم، وبسبب ضعف عامل التقوى عندهم كانوا أجرأ من غيرهم على تحريفه، وتحويل معناه عن مراده، مع قدرتهم على إقناع العامّة بالحقّ الذي جاء به.

وفي الجانب التربوي فقد دلّت الآية على تقرير مبدأ شموليّة النّظرة، وربط المقدمات بالنتائج قبل اختيار المواقف، مع بيان خطورة توارث السمات السلبية بين السابق واللاحق. لذلك فإنّ من الضروري أن يكون التعامل مع الأحداث أقرب للواقعيّة والعدالة، وأن يُجرّد الحقّ

لذاته بعيداً عن الأهواء والعواطف، أو المصالح التي لا تخدم أهداف الدعوة، فلا ينبغي للأمّة المؤمنة أن تشكّل المواقف مع الغير دون دراسة مسبقة تستند في تقريرها لتلك المواقف على المقدمات والنّتائج، ومن ثمّ السمات والخصائص التي اصطبغت بها الأمم والجماعات، حتى تكون المحصلة أقرب إلى الواقعيّة، وبعيدة عن إضاعة الوقت والجهد.

ولابدّ أن يرتبط الحاضر بماضيه خصوصاً إذا كانت صورة الماضي تتكرر في معالم الحاضر، وعناصرهما تتقاطع إلى حدّ كبير. ومن هنا فإنّ الحكم على أمّة اليهود في كلّ زمان يجب أن يستند إلى تأريخهم الطويل الذي تتكرر سماته حيثما وُجدت أمّة اليهود على مدار الزمان. وهذا ما دلّت عليه الآية بقوله تعالى: ﴿وقد كان فريق منهم..﴾.

نعم : ولا تزر وازرة أخرى، هذه عدالة الحكم بين النّاس، لكن إذا تطابقت سمات السابق واللاحق، وكانت قواسم الشرّ المشتركة بينهما كبيرة، عند ذلك يكون الحكم على الحاضر جزءاً من الحكم على الماضي. ولعلّ دعاء نوح عليه السلام على قومه كما أخبر الباري عزّ وجل بقوله: ﴿إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ (نوح 27) لم يكن استباقاً للحكم على الأجيال القادمة، بل هي التجربة والنتيجة

في مظلّة المعايشة والملازمة والعمل المضني، ممّا وسّع من خبرته فيهم، ومصداقيّة الحكم عليهم.

كما دلّت الآية الكريمة على خطورة التلاعب بدين الله وبنصوص الوحي، سواء كان تحريفاً في أصل الكلام، أو في دلالته ومعناه، لأنّ التحريف في دين الله أيّا كان نوعه يُحدث خللاً مشيناً في الأداء والسلوك، وبالتالي لا يُمكن أن نُوجد منهجاً تربويّاً يستقيم في ظلاله الأفراد، عندما تنبثق عناصره عن مفاهيم خاطئة، أو عن أصل محرّف.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ (76)

قيل هم جماعة من اليهود آمنوا ثم نافقوا. وكانوا يقولون إذا دخلوا المدينة نحن مسلمون ليعلموا خبر رسول الله ﷺ وأمره. فإذا رجعوا، رجعوا إلى الكفر. فلما أخبر الله نبيه ﷺ قطع ذلك عنهم فلم يكونوا يدخلون، وكان المؤمنون يظنون أنهم مؤمنون فيقولون أليس قد قال الله لكم كذا وكذا؟ فيقولون بلى. فإذا رجعوا إلى قومهم يعني الرؤساء قالوا ﴿أتحدثونهم بما فتح الله عليكم﴾ الآية.

وقيل معناها: أتحدثونهم بما أنزل الله في كتابكم من صفات محمد ﷺ وبما جاء من خبر بعثته في كتبكم.[1]

﴿أَوَلا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ (77)

فالله تعالى يعلم ما يخفون من كيد أو كفر، سواء من كان منافقا منهم، أو من قال لهم من جماعتهم : ﴿أتحدثونهم بما فتح الله عليكم﴾ ويعلم ما يُظهرونه من إيمان، وهم من أهل الكذب والخداع.

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّون﴾ (78)

أي من أهل الكتاب فئة لا تحسن القراءة والكتابة، فلا يعلمون ما في كتبهم من حقائق ودلائل على بعثة النبي ﷺ فهم يتمنون الأماني، ولا يؤمنون يقينا بالذي جاء به محمد ﷺ، بل هم في شكّ وريب منه.

---

١ أنظر: ، تفسير الطبري ج1/ص371، تفسير ابن كثير ج1/ص116، الدر المنثور ج1/ص199

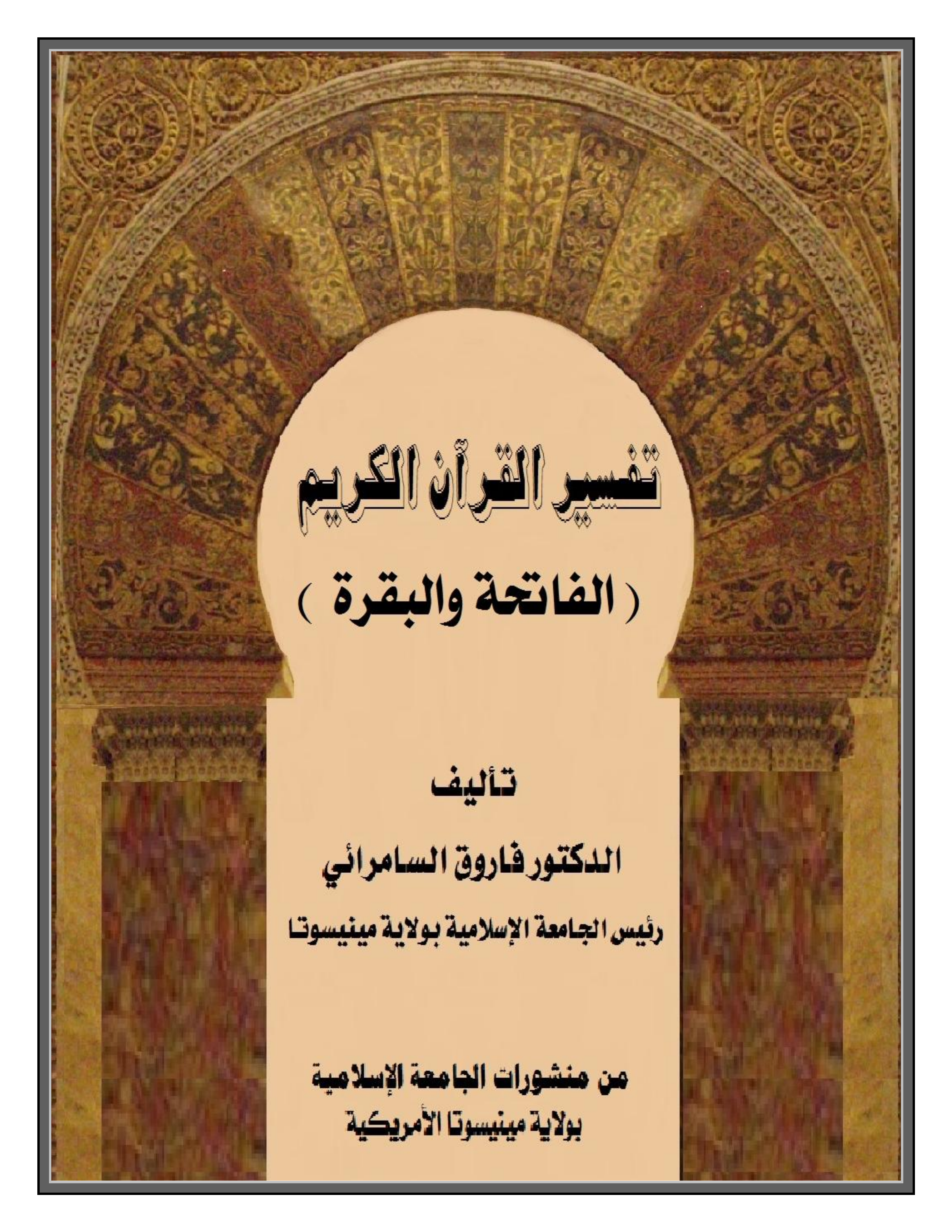
﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ (79)

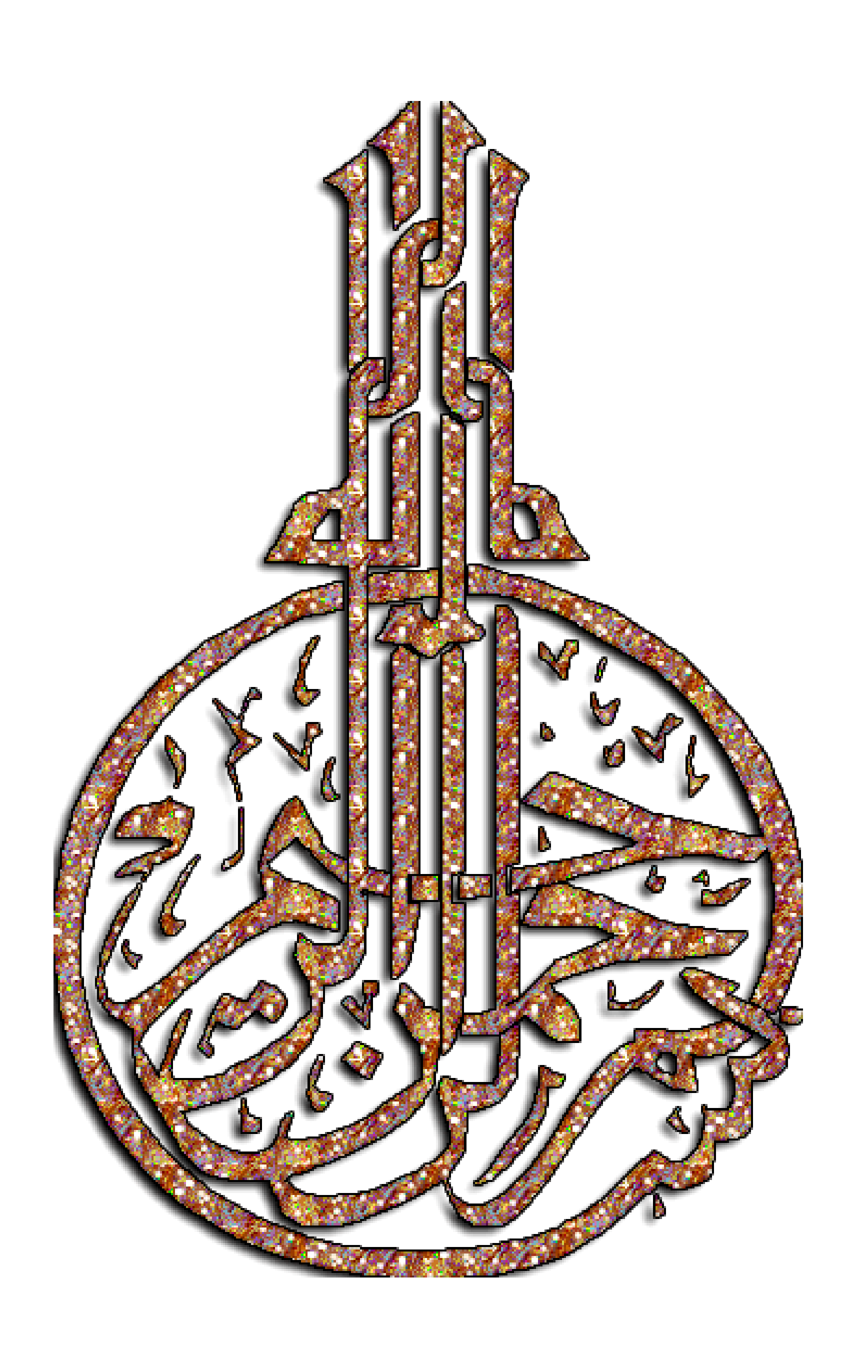
كلمة (فويل) تدلّ على شدّة الوعيد، وما يترتب عليه من العذاب الأليم. وقيل (ويل) هو وادي في جهنّم، وهو الذي أخبر عنه النبي ﷺ بقوله: (الْوَيْلُ وَادٍ في جَهَنَّمَ يَهْوِى فِيهِ الْكَافِرُ أَرْبَعِينَ خَرِيفاًقَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ قَعْرَهُ)[1]

وفي الخطاب ترهيب ووعيد لأحبار اليهود، أو كلّ من فعل فعلتهم، بأن يفتروا على الله الكذب وهم يعلمون، فيكتبون الكتاب بأيديهم ويدّعون أنّه من التوراة المنزل عليهم، زوراً وبهتانا، ليُضلّوا عن سبيل الله، وعن الحقّ الذي جاء به النبي ﷺ، طمعاً في كسب المال والثروة، ولا يهمّهم من أمر الحقّ شيئاً. فويل لهم ممّا كتبت أيديهم من التحريف والتبديل، وويل لهم ممّا يكسبون من المال الحرام مقابل ذلك.

---

١ المستدرك على الصحيحين ج2/ص551، سنن الترمذي ج5/ص320


تفسير القرآن الكريم
(الفاتحة والبقرة)
تأليف
الدكتور فاروق السامرائي
رئيس الجامعة الإسلامية بولاية مينيسوتا
من منشورات الجامعة الإسلامية
بولاية مينيسوتا الأمريكية


بسم الله الرحمن الرحيم

الجزء الخامس

﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاّ أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾(80)

ادعاء لا دليل عليه ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاّ أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ فمن أخبرهم بهذا، ومن عهد إليهم بهذا؟ إنّه قول باطل، لأنّ ذلك من علم الغيب، وهو من تخصص الله وحده، ولم يُطلعهم عليه، بل يقولون ذلك افتراء على الله، وهم كاذبون لا يعلمون من الأمر شيئا.

ومهما بلغ الإنسان في تقواه وعمله الصالح، فلا يحكم على نفسه بشيء ممّا سيئول إليه حاله يوم القيامة، بل يترك مصيره بين يدي رحمة الله. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (سَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَاعْلَمُوا أَنَّ أَحَداً مِنْكُمْ لَيْسَ بِمُنْجِيهِ عَمَلُهُ). قَالُوا وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: وَلاَ أَنَا إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِىَ اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ)[١]. ورحمة الله موعود بها أهل طاعته وتقواه، قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُون ﴾ (الأعراف 156)

---

١ مسند أحمد بن حنبل ج2/ص466

فكيف بمن قتل الأنبياء، وأتعب الرسل، ونقض المواثيق، وعبد العجل، وسعى في الأرض فسادا، ثمّ بعد ذلك يدّعي: ﴿ لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاّ أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ إنّها أمنية السفهاء، وسفاهة الحمقى، وحماقة الجهلاء!.

وهنا يلقن الله نبيه ليردّ على دعواهم وزعمهم الباطل: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَه﴾ هل آمنتم به، واتبعتم رسله، وأطعتم أوامره ؟ وهذا الذي يترتب عليه الوعد بالنجاة من خزي يوم القيامة، والله لا يُخلف وعده، ولا ينقض عهده ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ بسبب جهلكم وحماقتكم.

﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (81)

بلى من كسب سيئة بفعله وعمله، ثمّ أحاطها بشركه وكفره وطغيانه، أو أحاطها بفعل الكبائر والموبقات، أو أحاطها بنفسية بليدة ألفت المنكر، واستمتعت بفعله، فلا تشعر بألم الذنب، ولا تحسّ بوغز الضمير، ومن ثمّ لا توبة ولا اعتذار ولا ندم، فأولئك هم الخاسرون.

قال تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا ﴾ (النساء 123) فليس الأمر

كما تتمنون وترغبون، بل هو قانون الحقّ سبحانه ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (الزلزلة 8،7)

وقد يكون معنى (أحاطت):أي كثرت وتراكمت، وليس ثمّة عمل صالح يُذهبها ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴾ (هود 114) أو توبة متقبلة تزيلها، فأهلكت صاحبها. يقول النبي ﷺ: (إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكْنَهُ) وضَرَبَ رسول الله ﷺ لَهُنَّ مَثَلاً فقال: (كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا أَرْضَ فَلاَةٍ فَحَضَرَ صَنِيعُ الْقَوْمِ فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَنْطَلِقُ فَيَجِىءُ بِالْعُودِ وَالرَّجُلُ يَجِىءُ بِالْعُودِ حَتَّى جَمَعُوا سَوَاداً فَأَجَّجُوا نَاراً وَأَنْضَجُوا مَا قَذَفُوا فِيهَا)[١]

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (82)

على خلاف الصنف السابق من النّاس، فإنّه من يعمل صالحا وهو مؤمن، لأنّ الإيمان شرط في قبول العمل، فإنّ ثوابه الجنّة ونعيمها الدائم، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ

---

١ مسند أحمد بن حنبل ج1/ص402، المعجم الكبير ج6/ص165

مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ (النساء 124) والآيات الدالة على ذلك في القرآن كثيرة.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ (83)

ما أكثر المواثيق التي أُخذت على بني إسرائيل، وما أكثر نقضهم لها وتملصهم من تبعاتها. والميثاق هنا عهد الدين المتضمن توحيد الله، والعمل بتعاليمه.

وفي كلّ مرّة ميثاق وعهد، وقد لزم الأمر ذلك بسبب قسوة قلوبهم، وسوء طباعهم. ومضمون هذا الميثاق هو:

1- النهي عن عبادة غير الله، ووجوب عبادته وحده لا شريك له.

2- الإحسان إلى الوالدين وإلى الأقارب، وإلى اليتامى، وإلى المساكين الذين لا كسب لهم لينفقوا على أنفسهم وأهليهم، والنهي عن الإساءة إليهم، ويدخل في الإساءة إليهم ترك الإحسان إليهم ولو لم تكن إساءة.

3- القول الحسن، وهو الكلام الطيب الذي يرغب الإنسان سماعه، وليس فيه فحش ولا أذى، ويدخل في ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكذلك التحية والسلام عليهم.

4- أداء أهمّ ركنين من أركان الدين بعد الشهادتين، إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة.

ومع أنّ الميثاق بمجموع ما تضمنه ، فيه حياة كريمة لهم، حيث يرقى بالقوم نحو معالي الأمور، ويحقق لهم صدق العبادة، وكرامة الحياة في ظلّ العدل الإلهي، إلاّ إنهم كعادتهم، نقضوه وتولّوا عنه إلاّ قليلا منهم، وماذا تفعل هذه القلّة في خضمّ تلك الجموع المتمردة، المعرضة عن العهد، النائية بنفسها عن خشية الله، وعن احترام مواثيقه والعمل بأوامره ونواهيه.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ (84)

﴿وإذ أخذنا ميثاقكم﴾ أي اذكروا العهد الموثّق الذي أخذه الله عليكم. وكان مضمون الميثاق:

1- لا يسفك بعضكم دم بعض.

2- لا يخرج بعضكم بعضا من دياركم.

وجاء الخطاب بصيغة (دماءَكم) و (أنفسكم) و (دياركم) لبيان أنّ الاعتداء على الجماعة التي ينتمي إليها المرء كأنّه اعتداء على ذات النفس. فللأحاسيس والمصالح مشتركة بين أفراد الجماعة الواحدة.

وهناك شواهد من الكتاب والسنة تعزز هذا المعنى، منها قول الله عزّ وجل: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ﴾ (النور 61) فالسلام على الأقارب والأصدقاء والأصحاب كأنّه سلام على النفس. وقول النبي ﷺ في وصف المؤمنين: (تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى عُضْوًا تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى)[١] وفي رواية أخرى عن رسول الله ﷺ: (الْمُؤْمِنُونَ كَرَجُلٍ وَاحِدٍ إِنِ اشْتَكَى رَأْسُهُ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحُمَّى وَالسَّهَرِ)[٢]

﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ لتوكيد إقرارهم ومعرفتهم بالميثاق وشهادتهم عليه.

---

١ صحيح البخاري ج5/ص2238، مسند أحمد بن حنبل ج4/ص268

٢ صحيح مسلم ج4/ص2000، مسند أحمد بن حنبل ج4/ص276

ويرى الإمام ابن كثير: أنّ هذا الخطاب فيه (إنكار على اليهود الذين كانوا في زمان رسول ﷺ بالمدينة ، وما كانوا يعانونه من القتال مع الأوس والخزرج، وذلك أن الأوس والخزرج وهم الأنصار كانوا في الجاهلية عباد أصنام وكانت بينهم حروب كثيرة وكانت يهود المدينة ثلاث قبائل، بنو قينقاع وبنو النضير - حلفاء الخزرج - وبنو قريظة - حلفاء الأوس - فكانت الحرب إذا نشبت بينهم قاتل كل فريق مع حلفائه فيقتل اليهودي أعداءه وقد يقتل اليهودي الآخر من الفريق الآخر وذلك حرام عليهم في دينهم ونص كتابهم. وكانوا يخرجونهم من بيوتهم وينهبون ما فيها من الأثاث والأمتعة والأموال ثم إذا وضعت الحرب أوزارها استفكوا الأسارى من الفريق المغلوب عملا بحكم التوراة).[١] فأنكر عليهم الله تعالى فعلتهم هذه بقوله: ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْض﴾ وذكرهم بالميثاق الوارد في الآية.

---

١ تفسير ابن كثير ج1/ص121

﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾(85)

ثمّ أنتم هؤلاء خالفتم أحكام التوراة، ونقضتم الميثاق، بقتلكم أنفسكم (جماعتكم وأبناء جلدتكم) وأخرجتم فريقا منكم من ديارهم.

وعن تفسير الآية يقول ابن عباس ﷺ: (أنبأهم الله بذلك من فعلهم وقد حرم عليهم في التوراة سفك دمائهم وافترض عليهم فيها فداء أسراهم فكانوا فريقين طائفة منهم بنو قينقاع وهم حلفاء الخزرج والنضير وقريظة وهم حلفاء الأوس فكانوا إذا كانت بين الأوس والخزرج حرب خرجت بنو قينقاع مع الخزرج وخرجت النضير وقريظة مع الأوس يظاهر كل واحد من الفريقين حلفاءه على إخوانه حتى تسافكوا دماءهم بينهم وبأيديهم التوراة يعرفون فيها ما عليهم وما لهم، والأوس والخزرج أهل شرك يعبدون الأوثان ولا يعرفون جنة ولا نارا

ولا بعثا ولا قيامة ولا كتابا ولا حلالا ولا حراما، فإذا وضعت الحرب أوزارها افتدوا أسراهم تصديقا لما في التوراة وأخذا به بعضهم من بعض يفتدي بنو قينقاع ما كان من أسراهم في أيدي الأوس ويفتدي النضير وقريظة ما كان في أيدي الخزرج منهم ويطلبون ما أصابوا من دمائهم وقتلوا من قتلوا منهم فيما بينهم مظاهرة لأهل الشرك عليهم، يقول الله تعالى ذكره حيث أنبأهم بذلك ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ أي تفادونهم بحكم التوراة وتقتلونهم، وفي حكم التوراة أن لا يقتل ولا يخرج من داره ولا يظاهر عليه إلا من يشرك بالله ويعبد الأوثان من دونه)[١] ﴿ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بسبب مخالفتهم شرع الله وأمره، ترتب عليهم هذا الجزاء والعقاب.

---

١ تفسير ابن كثير ج1/ص122

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآَخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ (86)

اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة بنقضهم ميثاق الله، ليستبدلوها بمواثيق المشركين حينما عقدوا معهم حلفاً يخالف أحكام دينهم، وبفعلهم هذا فقد اعتدوا على أنفسهم وجماعتهم، كلّ ذلك لأجل مصالح دنيوية زائلة.

﴿فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ وفي هذا الخطاب ردّ على أكذوبتهم التي ادعوها ﴿ لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاّ أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ فعذابهم شديد دائم، وليس لهم يوم القيامة من ولي ولا نصير ليُنقذهم من هول جهنّم.

﴿وَلَقَدْ آَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾(87)

الكتاب الذي أُنزل على موسى عليه السلام هو التوراة. ﴿وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ قفينا: أي أتبعنا. فبسبب تحريف اليهود وتغييرهم في

كتاب موسى، وأحكام دينهم ، بعث الله من بعده رسلاً في بني إسرائيل ليُعيدوهم إلى ذات الحقّ الذي جاء به موسى عليه السلام. قال تعالى:﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ .. ﴾ (المائدة 44) حتى ختم الله سلسلة أنبياء بني إسرائيل بعيسى ابن مريم عليه السلام، الذي أيّده الله بروح القدس (جبريل عليه السلام) وأعطاه الدلائل والمعجزات الخارقة، لتعزيز رسالته ونبوته، خصوصاً وأنّه سيواجه أمّة عاتية من اليهود، لهم تأريخ طويل من الجحود والطغيان ونقض العهود والمواثيق. ومن هذه الدلائل والمعجزات ما جاء ذكره في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ، وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ، قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ، وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ، وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ

وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران 45-49)

﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ وفعل بني إسرائيل هذا بأنبيائهم ، كان سببه إتباع الهوى، والاستكبار في الأرض، وتقديم مصالحهم الخاصة على مصلحة الحقّ الذي جاء به الرسل.

وجاء وصفهم بالقتل بصيغة الفعل المضارع (تقتلون) مع أنّ الفعل قد وقع ومضى، للدلالة على استعدادهم للقتل في كلّ زمان ومكان، حتى ولو كان ضحيتهم أنبياء الله، وسوف لا يتحرجون من قتل رسول الله محمد ﷺ، وقد حاولوا ذلك مراراً، بإلقاء صخرة عليه، ودسّ السمّ له في الطعام، وغدرهم يوم الأحزاب في معركة الخندق، يوم نقضهم العهد وتحالفهم مع المشركين، للقضاء عليه وعلى أصحابه، لكنّ الله حفظ نبيّه وحبيبه، وحفظ رسالته، بصدق وعده له ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (المائدة 67)

ومسألة إتباع الهوى من أعظم الآفات التربويّة في حياة النّاس، إذ لا بدّ من مرجع ثابت، أساسه محكم، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من

خلفه، لا يتأرجح بتأرجح الأهواء والنزوات، ولا يتغيّر بتغيّر المصالح، لكي يسلم المنطلق من عبث العابثين، وإفساد المفسدين.

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُون﴾ (88)

إقرار منهم على أنفسهم بأنّ قلوبهم غُلْف، أي لا تفقه ولا تعقل، لأنّ عليها أغلفة وأكنّة حجبت بينهم وبين فقه خطاب الباري عزّ وجل، وهذا الإقرار ليس من قبيل الاعتراف بالحقيقة، وإنّما قصدوا به تعجيز الأنبياء والرسل، والتبجّح بأعذار شنيعة لا تليق بإنسانية الإنسان الذي كرّمه الله بالعقل والتفكير، ومن ثمّ اختيار الأقرب إلى مصالح العباد.

وقد يكون قصدهم من دعوى أنّ قلوبهم غلف، أي أنّها مملوءة ومغلفة بالعلم الذي جاءت به كتبهم، وما تعلموه من أحبارهم وأساتذتهم، فهم ليسوا بحاجة إلى دعوة محمّد ﷺ أو تعاليم دينه.

﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ طردهم الله من رحمته بسبب كفرهم وجحودهم.

﴿فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ﴾ وهذا اللفظ تضمن معان عدّة، من بينها:

1- القلّة هنا في عدد الذين آمنوا منهم، لأنّ أكثرهم جاحدون ومكذبون بدعوة محمد ﷺ.

2- إنّ إيمانهم الذي ادعوه كان باطلاً ومحرّفاً إلاّ القليل منه، وهذا القليل لا يصرفهم عن وصفهم بالكفر والطغيان.

3- مهما كان حجم الآيات والدلائل والمعجزات في دعوة محمد ﷺ فإنّها لا تكفيهم لأن يؤمنوا ويصدقوا، لأنّه من النادر أن يقع منهم ذلك، وهذه من سجاياهم وخصالهم على مرّ العصور، وبذلك يكون معنى (قليلاً) أي: نادر الوقوع.

4- بسبب كفرهم وعنادهم حلّت عليهم لعنة الله، وبسبب هذه اللعنة فإنّه من النادر أن يقع منهم الإيمان والتصديق، فقد حقّت عليهم الضلالة، وهذا عقاب من الله على أقوالهم الباطلة، وأفعالهم الشنيعة.[١]

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾(89)

أي لمّا جاء اليهود كتابٌ من عند الله، وهو القرآن الكريم، مصدق لما بين يديهم من التوراة، وقد كانوا من قبل يستفتحون (يستنصرون) بمجيئه على أعدائهم من المشركين إذا قاتلوهم يقولون: إنّ نبيا سيبعث

---

١ أنظر: تفسير ابن كثير ج1/ص125

الآن نتبعه قد أظل زمانه فنقتلكم ونحن معه، قتل عاد وإرم، فلما بعث الله رسوله من قريش كفروا به ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [١] واللعنة هي الطرد من رحمة الله.

﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (90)

بئسما باعوا به أنفسهم بكتمانهم الحقّ الذي جاءت به كتبهم، من أجل عرض من الدنيا قليل، فكفروا بمحمد ﷺ، حسدا من أنفسهم ، وكراهية أن يختار الله محمّداً ﷺ للنبوة والرسالة، وليس من بني إسرائيل. وبسبب موقفهم حقّ عليهم غضب الله وعذابه المهين.

---

١ أنظر: السيرة النبوية ج2/ص37، البداية والنهاية ج2/ص308، تفسير ابن كثير ج1/ص125

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (91)

وإذا طُلب من اليهود بأن يصدقوا بمحمد ﷺ ويتبعوه ، قالوا : نحن نؤمن بما أُنزل علينا من التوراة والإنجيل، ولا نعترف إلاّ بذلك، ويكفرون بما وراءه من الحقّ الذي جاء به النبي ﷺ ﴿ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾ أي : مصدقاً لأصل التنزيل في كتبهم قبل أن يحرفوها ويغيّروا أحكام الله فيها. فالحجة قائمة عليهم أكثر من غيرهم، خصوصاً وأنّهم يعرفون صدق محمّد ﷺ كما يعرفون أبناءهم. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة 146) وقد نهاهم الله عن التفريق في الإيمان بين الرسل، لأنّ مصدر الرسالات واحد، هو الله ربّ العالمين، ربّ موسى وعيسى وإبراهيم، وربّ جميع الأنبياء. قال تعالى:﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا، أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ (النساء 150-152)

﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ إذا كانت دعواكم صحيحة وصادقة، فلم قتلتم أنبياء الله من قبل؟ هل الذي يؤمن بالأنبياء والرسل يكون هو قاتلهم؟ هذا منطق أعوج، وحجّة واهية. وتأريخ اليهود شاهد عليهم بالجرم والقتل والتكذيب ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ فإيمانهم عارض بفعل الهوى ومصالح الذات، ولم يكن أصيلا بفعل التصديق واليقين.

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ (92)

إنّ مشكلتكم لم تكن مع محمّد ﷺ فحسب، كذلك كانت مع رسولكم ونبيكم موسى عليه السلام. إنّها مشكلة القلوب الميتة التي تصلدت لتستحيل حجارة أو أشدّ قسوة، إنّها النفوس التي جُبلت على الغواية والضلال، هم صنف من البشر ندر أشباههم في عالم الوجود.

لقد جاءهم نبيهم موسى بالمعجزات الخارقات، والآيات البيّنات، فكان منها: حادثة الطوفان، والجراد والقمل والضفادع والدم والعصا واليد وفرق البحر فكان كلّ فرق كالطود العظيم، وكذلك تظليلهم بالغمام

في الصحراء ذات الشمس المحرقة، ومن ثمّ إنزال المن والسلوى عليهم لتكون لهم مائدة من السماء، وبعدها تفجّر الماء من الحجر لأجل سقياهم وسدّ حاجتهم، وكلّ هذه الآيات كانت كافية ووافية لأن تسوق العباد إلى الإيمان بالله وحده لا شريك له، ولأن تفجّر ينبوع اليقين بالله في قلوبهم، لكن ما جدوى هذه الآيات في قلوب بني إسرائيل التي كانت كالحجارة أو أشدّ قسوة.

﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ إنّه إلههم الجديد الذي اختاروه بديلا عن الله عزّ وجلّ، من بعد غياب موسى عليه السلام عنهم، بسبب ذهابه لميقات ربّه ومناجاته عند جبل الطور. وهم بفعلهم هذا ظلموا أنفسهم ، فاستحقوا عذاب الله وسخطه وانتقامه.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آَتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [93]

ميثاق بعد ميثاق، وعهد بعد عهد، ووعد بعد وعد، وبالتالي وعيد بعد وعيد. وها هم أمام مشهد عظيم، تقشعرّ منه الجلود، وتزوغ بمشاهدته الأبصار، وتبلغ من هوله ورعبه القلوب الحناجر، إنّها حادثة

رفع الجبل، ذلك الطور المهول بحجمه، الشامخ في ارتفاعه، في لحظة ما يكون في وزنه كالعهن المنفوش بيد القادر على كلّ شيء، القاهر فوق عباده.

إنّه مشهد الميثاق والعهد الذي أخذه الله عليهم في لحظة رفع الجبل فوق رؤوسهم، لترتفع النفوس إلى أعلى درجات التلقي، ولتنشغل أذهان القوم في دلالات العهد والميثاق، حتّى لا تجد متسعاً لأن تفكر في أمر آخر، فالجبل فوقهم، قمّته في جهة السماء، وقاعدته في فوق رؤوسهم.

قال لهم الحقّ سبحانه (اسمعوا) فقالوا: (سمعنا وعصينا) بكلّ وقاحة وعناد، سمعنا قولك، وعصينا أمرك. ومن هنا ندرك هول المسافة بينهم وبين أخلاقيات أمّة محمّد ﷺ، وتأدبها في حضرة ربّها، فما وسعها إلاّ أن تقول وهي صادقة في ذلك ﴿وقالوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (البقرة 285) كما شهدت على نفسها شهادة الصادقين الموقنين ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ﴾ (آل عمران 193)

وبسبب إقرار اليهود بسماع الحقّ، ومن ثمّ عصيانهم له وكفرهم به، عاقبهم المولى عزّ وجل، بأن أشربهم حبّ العجل. ودلّ لفظ (وأشربوا) على شدّة تعلقهم به، وزيادة الرغبة في عبادته من دون الله.

﴿ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ إن كان هذا واقع إيمانكم - تقتلون الأنبياء، وتنقضون المواثيق، وتعبدون العجل، وتعصون أوامر الله، وتكذبون المعجزات – فبئس الإيمان إيمانكم، وبئس ما يأمركم به من تكذيب النبي ﷺ كما كذّبتم أنبياء الله ورسله من قبل.

﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآَخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (94)

قل لهم يا محمّد. وهذا دليل على أنّهم قالوا قبل ذلك: إنّ لنا الدار الآخرة خالصة لنا دون غيرنا من النّاس. وهذا الخطاب القرآني يكشف عن كذب اليهود فيما يدعون ويفترون على الله الكذب وهم يعلمون الحقيقة، لقد ادّعوا أنّهم شعب الله المختار، وأنّهم أهل الجنّة الفائزون بكرامة الله، وأنّهم أحباب الله، وأنّهم .. ، ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ

لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ (المائدة 18) وكذلك ﴿ وقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾(البقرة 111) ودعواهم هذه كانت كاذبة وباطلة، فلو كانوا صادقين فيما يقولون، فعليهم أن يسألوا الله أن يميتهم، فما دامت الدار الآخرة خالصة لكم من دون النّاس، فيجب عليكم أن تعشقوها وتتعجلوها، لأنّ من يحبّ شيئاً يحبّ أن يصل إليه. والإنسان حينما يكون واثقاً ومتأكدا من مصيره، وحسن ختامه، فإنّه لابدّ وأن يرغب بالموت على وجه الاستعجال، لأجل أن يستريح من عناء الدنيا وأن يستقبل نعيم الآخرة الذي ينتظره.

﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ (95)

ومحال أن يتمنّوا الموت، لا على مستوى الجماعة، ولا على مستوى الأفراد. لأنّهم كفروا وجحدوا وعصوا رسل الله، وفعلوا كلّ قبيح، والله عليم بظلمهم. قال رسول الله ﷺ: (وَلَوْ أَنَّ الْيَهُودَ تَمَنَّوْا الْمَوْتَ لَمَاتَوا وَرَأَوْا مَقَاعِدَهُمْ مِنَ النَّارِ﴾[١]

---

١ سنن النسائي الكبرى ج6/ص308، مسند أحمد بن حنبل ج1/ص248، مسند أبي يعلى ج4/ص471، مجمع الزوائد ج8/ص228

وقد يسأل سائل هنا، هل يجوز للمؤمن أن يتمنّى الموت؟ والجواب على ذلك، أنّه ورد تحذير من تمنّي الموت، فعَن أنس بن مالك ﷺ أنّه قال: لَوْلاَ أَنِّى سَمِعْتُ النَّبِىَّ ﷺ يَقُولُ « لاَ تَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ » لَتَمَنَّيْتُ .[١]

لكن والله أعلم أنّ المنهي عنه تمنّى الموت بسبب الجزع والتضجّر من مصيبة أو نازلة بالإنسان، فيرغب عندها بالموت فرارا من قضاء الله وقدره، أمّا تمنّي الموت رغبة في القرب من الله، وثقة بما عنده، أي ليس هروباً من الدنيا، وإنّما رغبة في الآخرة. فذلك والله أعلم لا بأس فيه. قال النبي ﷺ: (من أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ الله لِقَاءَهُ وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ الله لِقَاءَهُ، قالت عَائِشَةُ أو بَعْضُ أَزْوَاجِهِ أنا لَنَكْرَهُ الْمَوْتَ قال ليس ذَاكِ وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إذا حَضَرَهُ الْمَوْتُ بُشِّرَ بِرِضْوَانِ اللَّهِ وَكَرَامَتِهِ فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إليه مِمَّا أَمَامَهُ فَأَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ وَأَحَبَّ الله لِقَاءَهُ وَإِنَّ الْكَافِرَ إذا حُضِرَ بُشِّرَ بِعَذَابِ اللَّهِ وَعُقُوبَتِهِ فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إليه مِمَّا أَمَامَهُ فكره لِقَاءَ اللَّهِ وَكَرِهَ الله لِقَاءَهُ)[٢]

وفي رواية عن شُرَيْحِ بن هَانِئٍ عن أبي هُرَيْرَةَ قال قال رسول اللَّهِ ﷺ من أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ الله لِقَاءَهُ وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ الله لِقَاءَهُ،

---

١ صحيح البخاري ج6/ص2643
٢ صحيح البخاري ج5/ص2386

قال: فَأَتَيْتُ عَائِشَةَ فقلت يا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ سمعت أَبَا هُرَيْرَةَ يَذْكُرُ عن رسول اللَّهِ ﷺ حَدِيثًا إن كان كَذَلِكَ فَقَدْ هَلَكْنَا فقالت: إِنَّ الْهَالِكَ من هَلَكَ بِقَوْلِ رسول اللَّهِ ﷺ وما ذَاكَ، قال: قال رسول اللَّهِ ﷺ (من أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ الله لِقَاءَهُ وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ الله لِقَاءَهُ) وَلَيْسَ مِنَّا أَحَدٌ إلا وهو يَكْرَهُ الْمَوْتَ، فقالت: قد قَالَهُ رسول اللَّهِ ﷺ وَلَيْسَ بِالَّذِي تَذْهَبُ إليه وَلَكِنْ إذا شَخَصَ الْبَصَرُ وَحَشْرَجَ الصَّدْرُ وَاقْشَعَرَّ الْجِلْدُ وَتَشَنَّجَتْ الأَصَابِعُ فَعِنْدَ ذلك من أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ الله لِقَاءَهُ وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ الله لِقَاءَهُ) [١]

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (96)

كيف يتمنون الموت وهم أحرص من غيرهم على الحياة؟ وجاء ذكر الحياة التي يحرصون عليها نكرة من غير (أل) التعريف، للدلالة على أنّهم يحبون الحياة ويحرصون عليها مهما كانت، ولو كانت نكرة حقيرة. فهم أحرص النّاس عليها، وحتّى أحرص من المشركين أنفسهم. لأنّ

---

١ صحيح مسلم ج4/ص2066

المشرك لا يعتقد بوجود الآخرة، فيحرص على الحياة الدنيا لأنّه ليس عنده غيرها كما يعتقد.

وهؤلاء – أي اليهود - يرغبون لو عمّروا ألف سنة، ولوا عمّروا تلك المدة الطويلة، فإنّ ذلك لا يغيّر من سوء خاتمتهم، ولا يصرفهم عن عذاب الله، لأنّ النهاية لا تتغيّر مهما طال العمر.

وذكر عدد (ألف سنة) للدلالة على الكثرة، ولربما كان هذا العدد كان يمثّل غاية المعدود في أذهان كثير من النّاس آنذاك.

﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (97)

زعم اليهود بأنّ جبريل عدوهم، لأنه كان ينزل بالهلاك والدمار والعذاب، وقد أصابهم من ذلك قديماً، وأنّ الذي يمنعهم من الإيمان بمحمد ﷺ هو جبريل، ولو كان ميكائيل هو الذي نزل بالوحي على محمد ﷺ لآمنوا، لأنّ ميكائيل يتنزل بالخير والرخاء والمطر.

إنّه قول منكر، فجبريل هو روح القدس، ورسول الله إلى أنبيائه ورسله، ومولى رسول الله ﷺ ، قال تعالى: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ

قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ (التحريم 4)

إنّ جبريل هو الذي نزل بالقرآن من عند الله على قلب رسول الله ﷺ وعلى الأنبياء من قبله، والقرآن الذي نزل على محمد ﷺ جاء مصدقاً لما جاءت به الكتب من قبله، غير مخالف ولا مناقض لها، وفيه هداية إلى طريق الخير، وبشارة للمؤمنين الصادقين بالنجاة وجزيل الثواب.

﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾(98)

يؤكد الباري عزّ وجل كفر من عادى هؤلاء، أو أيّ واحد منهم، لأنّهم جميعاً يأتمرون بأمره، ويؤدون مهمّتهم التي أوكلها لهم على أكمل وجه، وقد أخبر الله عنهم بذلك فهم ﴿ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ (الأنبياء 27) وهم ﴿ لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (التحريم 6) فمن عاداهم فإنّ عدوّه الله جلّ جلاله.

وجاء ذكر الملائكة عامّة دون تحديد لأسمائهم، ومن ثمّ ذكر جبريل وميكال بأسمائهم، لورود أسمائهما في زعم واتهام اليهود، أو لأهميّة

الملكين عند الله، بسبب ضخامة المهام الموكلة إليهما من قِبَل الحقّ سبحانه، والله تعالى أعلم.

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آَيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُون﴾ (99)

توكيد لما أنزل الله من الآيات الواضحات على النبي ﷺ، والتي لا يكفر بها إلاّ من خرج عن طاعة الله، ورغب في إتباع الهوى والشيطان، لأنّ الفطرة المستقيمة لا يسعها إلا الإيمان بالله وبآياته، فليس معنى امتناعهم عن الإيمان بالآيات هو أنّها غير مقنعة أو كافية، وإنّما هو الجحود والنكران لدى اليهود.

﴿أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (100)

(كلّما) تفيد التكرار، أي كلما عاهدوا الله عهداً، نقضته فئة منهم، سواء كانت العهود التي أبرموها مع أنبيائهم ورسلهم قبل النبي ﷺ، أو تلك التي عاهدوها للنبي ﷺ بعد دخوله المدينة المنورة.

﴿ نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ ﴾ لا يحترمون بعضهم بعضا، فعهودهم غير ملزمة للجميع، وبإمكان أيّ فريق منهم نقض عهد الفريق الآخر، وهذه من صفات اليهود، خلاف صفات أمّة محمد ﷺ الذين قال فيهم رسول الله

ﷺ: (الْمُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ يَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ وَيُجِيرُ عَلَيْهِمْ أَقْصَاهُمْ وَهُمْ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ يَرُدُّ مُشِدُّهُمْ عَلَى مُضْعِفِهِمْ وَمُتَسَرِّعُهُمْ عَلَى قَاعِدِهِمْ لاَ يُقْتَلُ مُؤْمِنٌ بِكَافِرٍ وَلاَ ذُو عَهْدٍ فِي عَهْدِهِ)[١] .

وسبب ذلك أن أكثرهم لا يؤمنون. وبما أنّ أكثرهم لا يؤمنون، فيكون الذين نبذوا العهد هم الأكثريّة منهم، وهم السواد الأعظم في بني إسرائيل.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ (101)

إشارة إلى رسالة النبي ﷺ التي أكدت وعززت ما في كتب اليهود، وما جاء به الأنبياء من قبل، فكان موقفهم أن ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ أي طرحوه وراء ظهورهم، رغبة عنه، متجاهلين ما فيه من الحقّ، كأنّهم لا يعلمون. ويستوي في ذلك عندهم ما كان بأيديهم من الكتاب الذي بشّر ببعثة النبي ﷺ، وما أنزله الله على رسوله محمد ﷺ من القرآن الكريم.

---

١ سنن أبي داود ج3/ص80، سنن ابن ماجه ج2/ص895، مسند أحمد بن حنبل ج1/ص122، سنن النسائي الكبرى ج4/ص220

﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (102)

إنّه لطبع غريب في أمّة اليهود، دائماً يستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير. نبذوا كتاب الله وما فيه من الصدق والخير لهم، ليتبعوا ما أخرجت الشياطين للناس من السحر بعد أن زعموا أن سليمان عليه السلام كان يستعمله ليحصل له الملك العظيم. وهم كاذبون في زعمهم ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ أي: بتعلم السحر ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾.

لقد ترك اليهود الحقيقة التي حوتها كتب الله، ليلهثوا وراء الأساطير والأكاذيب، ووراء القصص والروايات الخادعة التي روتها الشياطين على عهد وأيّام سليمان عليه السلام.

ولم يدرك اليهود أنّ عطاء الله لرسوله سليمان كان بسبب اجتبائه واختياره للنبوة والرسالة، فملك سليمان كان تأييدا للرسالة والنبوة، ليعجز البشر ضمن قدراتهم من فعل ذلك ، فيكون التحدّي من باب الإعجاز الخاصّ بالأنبياء، ثمّ إنّ المُلْك الذي وهبه الله لسليمان كان حقيقة، وثمرة للهبة الإلهيّة، وكان استجابة لطلبه عليه السلام: ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ (سورة ص 35).

أمّا قصّة الملكين (هاروت وماروت) فقد جعلهما الله فتنة للنّاس، وكانا ببابل، وهي مدينة تقع في العراق. فاليهود اتبعوا فيها سحر الشياطين، كما اتبعوا السحر الذي فتن الله به النّاس على يدي هاروت وماروت. وهذان الملكان كانا فتنة للنّاس لا يعلم أحد الحكمة من إرسالهما إلاّ الله، ولا نرغب في الدخول بتفصيلات ماهيّتهما كي لا ننأى بدلالة النّص بعيدا عن الهدف والغاية.

وكان الملكان لا يعلّمان السحر لأحد حتّى ينصحانه: ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ﴾ أي فلا تكفر بتعلم السحر ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ وفي ذلك دليل على أنّ تأثير السحر حقيقة واقعة، فمع أنّ المحبّة والصلة بين الزوجين عظيمة بشهادة الله تعالى ﴿ وَمِنْ

ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الروم 21) إلاّ أنّ السحر يفرّق ويشتت بينهما، ففيه دمار اجتماعي، وخراب أسري.

﴿ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فليس لمخلوق أن يحرّك ساكنا في الكون إلاّ بأمر الله وقدرته وقضائه، ومهما بلغ العباد في الأخذ بأسباب الفعل، فلن يكون الحدث إلاّ بأمره تبارك وتعالى. وليس لأحد أن يضرّ أحدا من غير أن يأذن به الله، فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنّه قال: (كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا فَقَالَ: يَا غُلاَمُ إِنِّى أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَىْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَىْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَىْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَىْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ)[١]

﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ ﴾ فالسحر مضرّته محضة، وليس فيه منفعه تُذكر كما هو الحال في بعض المحرمات كالخمر، الذي قال تعالى فيه: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ

---

١ سنن الترمذي ج4/ص667، وقال عنه: هذا حديث حسن صحيح، مسند أحمد بن حنبل ج1/ص293، المستدرك على الصحيحين ج3/ص623

لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا..﴾ (البقرة 219) . أمّا ما يتداوله بعض النّاس من ذكر أنواع من السحر الذي يسمونه (سحر المحبّة) فالسحر كلّه باطل، وجميعه في سخط الله، وحكم تعلمه والعمل به كلّه كفر وحرام، فهو من عمل الشيطان، ومن دروب الضلال والهلاك.

﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا﴾ أي اليهود، ﴿لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآَخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾ دلالة على شدّة حرصهم على تعلم السحر، كمن يرغب رغبة شديدة في شراء سلعة يحبّها، وهؤلاء ليس لهم في الآخرة نصيب من رحمة الله، بل وجبت عليهم عقوبته وسخطه. ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ إنّها أعظم خسارة، أن يكون الثمن المدفوع لشراء السحر، هي النفس التي لا يملك النّاس في حياتهم أغلى منها، لو كانوا يعلمون.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (103)

ولو أنّهم صدّقوا وحي الله، وتركوا ما جاءت به الشياطين من السحر، ثمّ اتقوا ربّهم في أفعالهم، فهجروا العمل بالسحر، وتوقفوا عن أذى النّاس، فإنّ الله سيثيبهم من رحمته، بدل أن يأخذهم بالعذاب الشديد، فإنّ رحمة الله واسعة لمن آمن واتقى، لو كانوا يتعلمون العلم

النافع لهم. ويشمل هذا الخطاب الذين تعلموا السحر من الشياطين واتبعوا ما تتلوه على ملك سليمان، وكذلك الذين تعلموه من الملكين ببابل هاروت وماروت.

ويرى بعض العلماء أنّ في الآية دليل على تكفير الساحر ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آَمَنُوا﴾ أي لم يكونوا مؤمنين لممارستهم السحر، وقيامهم بأعمال الشياطين.

ولشناعة عمل السحرة، وما يحمله من أذى وخبث لعباد الله، فقد قال رسول اللَّهِ ﷺ: (حَدُّ السَّاحِرِ ضَرْبَةٌ بِالسَّيْفِ) [١] وأمر الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ﷺ أصحابه أن يقتلوا كلّ ساحر وساحرة، فقتلوا في يوم واحد ثلاث سواحر.[٢]

---

١ سنن الترمذي ج4/ص60، المستدرك على الصحيحين ج4/ص401، سنن الدارقطني ج3/ص114

٢ الجمع بين الصحيحين ج1/ص178، سنن البيهقي الكبرى ج8/ص136، مسند الشافعي ج1/ص383

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (104)

الخطاب موجه للمؤمنين ﴿لا تقولوا راعنا﴾ راعنا: أي راع أحوالنا في تعليمك لنا أمر ديننا ﴿وقولوا انظرنا ﴾ من النظر، وهذه الكلمة بديلة عن (راعنا) وتفي بمعناها الذي قصده المسلمون. ﴿واسمعوا﴾ سمع طاعة واستجابة. ولم يذكر هنا ماهية المسموع، ليشمل الأمر كلّ خطاب وطلب يسمعه العباد، سواء جاء به القرآن الكريم أو السنّة النبوية، أو مصادر التشريع الأخرى التي اعتمدها علماء الأمّة وأجمعوا عليها.

وفي مناسبة الآية وسبب نزولها قال ابن عباس ﷺ : (كان المسلمون يقولون للنبي ﷺ: راعنا. على جهة الطلب والرغبة ـ من المراعاة ـ أي التفت إلينا; وكان هذا بلسان اليهود سبّاً, أي اسمع لا سمعت، فاغتنموها وقالوا : كنا نسبه سرا فالآن نسبه جهرا; فكانوا يخاطبون بها النبي ﷺ ويضحكون فيما بينهم; فسمعها سعد بن معاذ ﷺ وكان يعرف لغتهم; فقال لليهود: عليكم لعنة الله، لئن سمعتها من رجل منكم يقولها للنبي ﷺ لأضربن عنقه، فقالوا: أولستم تقولونها؟ فنزلت

الآية) ونهوا عنها لئلا تقتدي بها اليهود في اللفظ وتقصد المعنى الفاسد فيه)[1]

ويدل على صحة هذه التأويل قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَراعِنَا لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِى الدّينِ﴾ (النساء 46)[2]

وقيل:(رَاعِنَا) عند اليهود من الرعونة: فإذا أرادو أن يُحَمِّقُوا إنساناً قالوا له راعنا. وهذا المعنى أورده الإمام البخاري في صحيحه.[3]

﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي مؤلم على الدوام.

وفي الآية دلالة تربوية للمسلمين لحثّهم على مراعاة الألفاظ ومدلولاتها، فلا يستعمل المسلم إلاّ اللفظ اللائق في معناه، فإن احتمل اللفظ معان متباينة، فيها الحسن والقبيح، فليستبدله بلفظ آخر يليق في مدلوله ومعناه، حتّى لا يجعل لأهل الشرّ ذريعة لأن يُصيبوا من المسلمين ومن دينهم ما يريدون. فقد يتحِدُ اللفظ في القول، ولكنّ النيّة في المقول تختلف، فالمسلمون كانوا يقصدون معناها اللائق برسول الله ﷺ، على خلاف مقاصد اليهود، عليهم من الله ما يستحقون.

---

١ تفسير القرطبي ج2/ص57
٢ انظر: التفسير الكبير ج3/ص203
٣ أنظر: صحيح البخاري ج4/ص1625

وفي الآية دليل على نهي العباد عن فعل الجائز شرعاً، إذا كان ذلك يُفضي إلى الحرام، وذلك من باب سدّ الذرائع، لجعل سلوك المؤمن في أعلى درجات الخلق الذي يليق به. لذلك نهى الباري عزّ وجل عن سبّ الكافر، كي لا يسبّ ديننا وشرعنا، قال تعالى: ﴿وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام 108) كما نهى النبي ﷺ عن الشتائم بين المسلمين لأنّها تُفضي إلى ما هو أشنع، فقال: (مِنَ الْكَبَائِرِ شَتْمُ الرَّجُلِ وَالِدَيْهِ) قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ يَشْتِمُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ قَالَ: نَعَمْ، يَسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ وَيَسُبُّ أُمَّهُ فَيَسُبُّ أُمَّهُ).[١]

﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (105)

أي: ما يحب الذين كفروا من أهل الكتاب ، خصوصاً اليهود، ولا المشركين من عبدة الأوثان، أن ينزّل الله على رسوله وعلى المؤمنين من خير الوحي والرسالة، التي اختصّ بها نبيّه محمّد ﷺ من دون

---

١ صحيح مسلم ج1/ص92، سنن الترمذي ج4/ص312، الجمع بين الصحيحين ج3/ص431

البشر، ومن ثمّ اختصّ بها أمّته من دون الأمم لينالوا شرف الإتباع لرسولهم، والنصرة لدين الله. وهو سبحانه أعلم حيث يجعل رسالته، وهو صاحب الفضل العظيم في ذلك.

وهنا كشَفَ الحقّ سبحانه وتعالى عن مكنونات صدور الأعداء، من غيض وكراهية للمؤمنين، ليتسلّح المؤمن بعقيدة الولاء والبراء، فلا يركن إلى هؤلاء الصنفين من النّاس، ولا يثق بأقوالهم وأفعالهم. ومهما أظهروا له من قرب ومودة، فذلك من قبيل المكر والخديعة، لأنّ سبب الكراهية والبغضاء، هو تمسك المؤمن بمنهج الله، واعتزازه بدينه.

﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ﴾ فاختيار الرسل والأنبياء خاضع لمشيئة الله وحده، وليس لأحد غيره ﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءانُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ، أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (الزخرف 31، 32) فأسباب النبوّة لا يتحكم بها إلاّ الله، فهو وحده الذي يختصّ بها، بل إنه سبحانه صاحب الاختيار المطلق في جميع أمور الخلق ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (القصص 68)

﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ الفضل هو الزائد عن الحاجة، وفي بيان الفضل بمعنى الزيادة، قال رسول الله ﷺ (الْعِلْمُ ثَلاَثَةٌ وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَهُوَ فَضْلٌ، آيَةٌ مُحْكَمَةٌ أَوْ سُنَّةٌ قَائِمَةٌ أَوْ فَرِيضَةٌ عَادِلَةٌ)[١]

أمّا من جهة الحقّ سبحانه، فإنّ كلّ نعمه في الكون، الحادثة منها في الدنيا، والمدخرة في الآخرة، هي من فضله، وجميعها زائدة عن حاجته سبحانه، ولا يحتاج إلى شيء منها، بل يمنحها للعباد تفضلاً وتكرماً منه، وهو الغنيّ عن خلقه.

﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آَيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(106)

الله وحده الذي يفعل بأحكامه وأوامره ما يشاء، يُثبت منها ما يشاء، وينسخ منها ما يشاء، وكلّ أحكامه، سواء كانت نسخاً أو إثباتاً، تعميماً أو تخصيصاً، من مقتضى رحمته بعباده ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة 216) ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الملك 14).

---

١ سنن أبي داود ج3/ص119، سنن ابن ماجه ج1/ص21، المستدرك على الصحيحين ج4/ص369

لقد راعت أحكام الله نموّ وتطور أحوال الجماعة الإسلاميّة في مكة المكرمة والمدينة المنورة، فجاءت جميع الأحكام متناسقة ومتناغمة مع خصائص الجماعة، ومع سمات الفترة الزمنية التي عاشتها. فالناسخ والمنسوخ، والعام والخاص، والمحكم والمتشابه، كلّها تقع في دائرة المصالح. فالحكم المنسوخ قد يكون الأفضل في وقته وزمانه، أمّا بعد نسخه، فإنّ الأفضل منه الحكم الجديد الذي استقرّ التشريع عنده، فلكلّ حالة وفترة سماتها وخصائصها. أمّا بعد استقرار الحكم، واكتمال دائرة التشريع، وتوقف حالة النسخ في الأحكام، فإنّ الوضع النهائي هو الأمثل والمعتمد، ليكون مظلةً لأفعال العباد حتّى تقوم الساعة، فيستغرق الزمان والمكان والبشر، من غير حاجة إلى تغيير أو تبديل، وليس هناك من أمر يطرأ على أحكام الله من حيث أصل تشريعها، إلاّ أن يكون اجتهاداً يراعي فيه أهل العلم ظروف النّاس، من حيث أحوالهم وزمانهم ومكانهم، بما يتسع له ظلال الحكم الإلهي، دون مساس بقدسيّة الأحكام.

إنّها الرحمة الإلهيّة، والفضل الإلهي، أن ينسخ الله تعالى بعض أحكامه وأوامره، لأجل مصلحة عباده، ليأتيهم بخير ممّا سبق. فالله عالم بما كان وما سيكون من أحكام، وعند إقراره لحكم ما في زمن معيّن،

فإنّ علمه سابق للحكم الذي سينسخه، والذي ستستقرّ عليه البشرية دواما واستمراراً حتّى تقوم الساعة.

أمّا من يقول بالبداءة - أي أنّ الله تعالى كان قد أقرّ أمراً وحكما، ثمّ بدا له بعد ذلك أمراً آخر، لم يكن قد بدا له سابقاً، ثمّ نسخ وغيّر وبدّل وفقا لما بدا له حديثاً - فكلامه هذا باطل، وكفر بصفات الله، لأنّ الله عالم الغيب، وعلاّم الغيوب، وهو الذي يعلم الأشياء قبل حدوثها، كما يعلم بالشيء الذي لو حدث ماذا سيكون بعد حدوثه، ولو لم يحدث ماذا سيكون لو أنّه حدث.

ومناسبة الآية أنّ اليهود كانوا ينكرون النسخ، ويزعمون أنه لا يجوز، مع أنّه مذكور في كتبهم، وقد كفروا بذلك، وقد يكون بعض الصحابة قد تأثّروا بادعائهم وتشكيكهم، فأخبر الله تعالى عن حكمته في النسخ، وأنّه خير للأمّة ممّا سبق من أحكام.

﴿ما ننسخ من آية﴾ فالنسخ هو إزالة شيء وإحلال شيء آخر مكانه، يُقال: نسخت الشمس الظلّ، أي ذهب الظلّ وحلّ مكانه ضوء الشمس، ونسخت الشيخوخة الشباب، أي ذهب الشباب وحلّت الشيخوخة محلّه.

والنسخ في الاصطلاح الشرعي: إزالة حكم قديم، وإحلال حكم جديد بديلاً عنه، لينتقل أهل التكليف من العمل بحكم سابق، إلى العمل بحكم جديد ينسخه. وبعد نزول الحكم النّاسخ، لا يجوز العمل بالحكم المنسوخ. ولا يكون النسخ إلاّ في الأحكام، أمّا الأخبار فلا يكون فيها ناسخ ولا منسوخ.

﴿أَوْ نُنْسِهَا﴾ من النسيان، لتزول من ذاكرة العباد، وهذا هو الراجح في معناها. وهناك من قرأها بفتح النون والهمزة بعد السين، فيكون المعنى (نؤخرها).

﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ إمّا أن يكون النّاسخ أفضل، أو مساو في الخير، وليس أقلّ من ذلك.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فمن شكك في النسخ، وقدح في مراد الله منه، فقد شكك وقدح في قدرته المطلقة.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾ (107)

فالمالك له حق التصرف بملكه، وأحكام الدين من ملك الله، وهي حقّ له وحده، الذي يتصرف بها كيفما يشاء، والخلق جميعا تحت

أوامره وأحكامه وأقداره، وهو وحده وليّهم ومالك أمرهم، وليس لسواه، وولايته لعباده من مقتضى رحمته بهم، فهو العليم بما ينفعهم ويضرّهم.

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ (108)

الخطاب هنا موجه للمسلمين واليهود، حيث نهاهم الله تعالى من أن يسألوا رسولهم ﴿ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ ﴾ والنهي عن السؤال هنا لا يشمل كلّ سؤال، فهناك أسئلة ممدوحة مثل تلك التي يُقصد منها التعلم والاسترشاد ومعرفة أحكام الدين، وقد تكرر في القرآن الكريم لفظ (يسألونك) كما تكرر لفظ الإجابة عن السؤال (قل) . وفي مواطن يكون السؤال واجباً، خصوصاً عندما يجهل الإنسان أحكام الدين، قال تعالى: ﴿اسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ (الأنبياء 7)

أمّا الأسئلة المنهي عنها في الآية فهي تلك التي يراد بها التشكيك والاعتراض والعناد، وهي شبيهة بتلك التي سألها بنوا إسرائيل لنبيهم موسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾

فهذه ونحوها، هي المنهي عنها، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ (المائدة 101) ﴿وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ بسبب تلك الأسئلة التي يُراد منها التشكيك بالدين، أو الاعتراض على أحكام الله.

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (109)

قيل إنّ الآية نزلت حين قال نفر من اليهود للمسلمين بعد وقعة أحد: انظروا ما أصابكم ولو كنتم على الحق ما هزمتم فارجعا إلى ديننا فهو خير لكم وأفضل، ونحن أهدى منكم سبيلا، وكان من بين الصحابة الذين سمعوا ذلك، حذيفة ين اليمان، وعمار بن ياسر ﷺ فقال لهم عمار: كيف نقض العهد عندكم، قالوا هو شديد، قال فإني عاهدت أن لا أكفر بمحمد ما عشت، فقالت اليهود: أما هذا فقد خيبنا، فقال حذيفة: وأما أنا فقد رضيت بالله ربا و بالإسلام دينا و بمحمد نبيا وبالقرآن إماما وبالكعبة

قبلة وبالمؤمنين إخوانا، ثم أتيا رسول الله ﷺ فأخبراه بذلك فقال: أصبتما الخير وأفلحتما فأنزل الله تعالى ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ .. ﴾[1]

﴿ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ في التوراة أن قول محمد صدق ودينه حق ﴿ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾ وأعرضوا عن مساوئ أخلاقهم وكلامهم وغل قلوبهم ﴿ حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ بأمره بالقتال.

وفي سبب آخر لنزول الآية هو ما روته أم المؤمنين السيدة صفية بنت حيي بن أخطب - رضي الله تعالى عنها- قالت: كنت أحب ولد أبي إليه وإلى عمى أبى ياسر، وكانا من أكبر اليهود وأعظمهم، فلمّا قدم رسول الله ﷺ المدينة ذهب إليه عمّي أبو ياسر وسمع منه ﷺ وحادثه ثم رجع إلى قومه فقال: يا قوم أطيعوني فإن الله قد جاءكم بالذي كنتم تنتظرونه فاتبعوه ولا تخالفوه، ثم انطلق أبي حيي إلى رسول الله ﷺ وسمع منه ثم رجع إلى قومه فقال لهم: أتيت من عند رجل والله لا أزال له عدوا، فقال له أخوه أبو ياسر: يا ابن أم أطعني في هذا الأمر واعصني فيما شئت بعد، لا تهلك، فقال والله لا نطيعك، ثم وافق عمّي أبي في عداوته، فكانا أشد اليهود عداوة لرسول الله ﷺ، جاهدين في رد

---

[1] العجاب في بيان الأسباب ج1/ص357، وأنظر: تفسير الواحدي ج1/ص125

الناس عن الإسلام بما استطاعا، فأنزل الله تعالى فيهما وفيمن كان موافقا لهما في ذلك [١] ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ..﴾

وقيل: كان كعب بن الأشرف يهوديا شاعرا فكان يهجو النبي ﷺ ويحرض عليه كفار قريش في شعره، وكان المشركون واليهود من أهل المدينة يؤذون النبي ﷺ وأصحابه أشد الأذى، فأمرهم الله بالصبر والعفو وفيهم نزلت [٢] ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ..﴾

وإن اختلفت الروايات، وتباينت أسباب النزول، لكنّها جميعا تعكس حقيقة اليهود، وما يضمرونه لأهل الإيمان من مكر وكيد وحسد.

وأيّاً كان السبب، فالدلالة واضحة بأنّ اليهود في المدينة المنورة كانوا يحاولون أن يهزموا الإيمان من قلوب المؤمنين، وسلاحهم في ذلك هو التشكيك والتضليل، وزرع الريب فيهم، ليردّونهم من بعد إيمانهم كفّارا، حسداً من عند أنفسهم، لكنّ الله تبارك وتعالى لن يتخلّى عن عباده المؤمنين، فوعدهم بأنّ هذا الوضع بالنسبة لليهود وما يفعلونه في المؤمنين لن يستمر، وأنّ أمر الله آت ليحسم القضيّة، وقدوم أمر الله ووقوعه لا ريب فيه، وعندما يأتي سيتغير كل شيء.. لكن

---

١ السيرة الحلبية ج2/ص314، وانظر: العجاب في بيان الأسباب ج1/ص354
٢ العجاب في بيان الأسباب ج1/ص356، تاريخ الإسلام ج2/ص161

المطلوب منهم أن يعفوا ويصفحوا، ليس ضعفا ولا تهاونا، وإنّما ترقبا لما سيأتيهم من عند الله، وهم على ثقة بأنّ الله لا يخلف وعده، وعلى يقين بأنّ الله غالب على أمره، وقاهر فوق عباده.

وفعلاً جاء الأمر بقتالهم، وتطهير مدينة رسول الله ﷺ من شرّهم ﴿فقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام 45)

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِير ﴾ (110)

أظهر عناصر التكليف، إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وهاتان العبادتان تعكسان حقيقة الإيمان الراسخة في قلوب المؤمنين، وتساعدان على دوام الإيمان وصيانته، فأمر الله عباده بهما لحمايتهم من كيد الباطل وأهله، وفي هذا أفضل ردّ على أعداء الدين، وخير سلاح لحربهم، وهو محكّ حقيقي لأهل الحقّ في ميدان الصراع بين الحقّ والباطل.

﴿وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ﴾ على الأقل خمس مرّات في اليوم، وهي المفروضات، ليكون المؤمن في حضرة الله، يستلهم فيها اليقين بالله، ويأخذ منه المدد، لذلك كان النبي ﷺ (إذا حَزَبَهُ أَمْرٌ صلى)[١]

وقوله تعالى: ﴿وَآتُواْ الزَّكَاةَ﴾ الأمر بذلك يعني أنّ المؤمن يملك ما يعطي، وحتّى إذا لا يملك ففيها حثّ على السعي في الأرض لسدّ حاجته، ويزيد عليها لسدّ حاجة غيره من أهل العوز والفاقة، وبذلك تتحرر جماعة المؤمنين من ذلّ الحاجة لغيرهم من أهل الديانات الأخرى، حتّى يحميهم الله من أن يركنوا إلى الذين ظلموا، أو أن يعطوا الدنيّة في الدين بسبب أزمة ماليّة، أو حاجة اقتصادية. يقول النبي ﷺ: (كادَ الفقرُ أنْ يكونَ كفراً)[٢]

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِير ﴾ فكلّ عمل خير في حياة المؤمن، فخيره عائد لذاته، ولأجل مصلحته، لأنّ الله غنيّ عن عباده، وقد جاء في الحديث القدسي: (.. ياعِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يا عِبَادِي لو أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ

---

١ سنن أبي داود ج2/ص35، مسند أحمد بن حنبل ج5/ص388

٢ مشكاة المصابيح ج3/ص1403، شعب الإيمان ج5/ص267، كشف الخفاء ج2/ص141

كَانُوا على أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ ما زَادَ ذلك في مُلْكِي شيئا، يا عِبَادِي لو أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا على أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ ما نَقَصَ ذلك من مُلْكِي شيئا، يا عِبَادِي لو أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا في صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ ما نَقَصَ ذلك مِمَّا عِنْدِي إلا كما يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إذا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يا عِبَادِي إنما هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غير ذلك فلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ)[١]

وكان أبو إِدْرِيسَ الْخَوْلانِيُّ إذا حَدَّثَ بهذا الحديث جَثَا على رُكْبَتَيْهِ[٢]، من عظمة هذا الحديث.

---

١ صحيح مسلم ج4/ص1994، صحيح ابن حبان ج2/ص385
٢ المصدر السابق